رواية

عبد السلام المساتي

# كاتب
## ونساء وعبث

# كاتب ونساء وعبث

عبد السلام المساتي

رواية

كاتب ونساء وعبث
رواية
عبد السلام المساتي

إصدار: يونيو ٢٠١٨

رقم الإيداع
2018MO5331

الترقيم الدولي
978- 9920- 9770- 7- 4

الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر
رقم الإصدار: ( ٦٥ )

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو دار النشر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

**منشورات دار لوتس للنشر الحر**
شركة لوتس للإنتاج والتوزيع

**القاهرة الكبرى:**
١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل بجوار محطة مترو فيصل
هاتف: ٠١٠٩١٩٨٥٨٠٩ – ٠١١١٦٣٨٩٣٤٧

**الإسكندرية:**
٦ شارع بن دينار – محرم بك – امبروزو
هاتف: ٠١٠٦٨٦٣٨٣٧٧

**المغرب: الدار البيضاء**
٢٧٠ زنقة ١٦ – حي البركة – مولاي رشيد
هاتف: ٠٦٦٤٣٩١٢٦١

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

**للتواصل مع الدار والمشروع**
هاتف / واتس آب:
+2 01116389347 - +2 01091985809
الموقع الإلكتروني:
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
صفحة فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub

# إهداء

إلى روح شقيقتي التي هزمها شوقها للجنة

إلى سكان قرية تسكنني

إلى سكان جنة اسمها "تملوكيت"

هناك كانت البداية.. وهناك قد تكون النهاية

أيها الأوفياء، روايتي هذه قد تدنسكم فلا تقربوها..

أيها المطهرون بالخيانة، روايتي لكم..

عبد السلام المساتي

لا يبدو أني كنت مستوعبا للوضعية التي وجدت عليها نفسي، لم يخطر ببالي أن أجدني وسط كل ذلك الخراب الذي صنعته بلاوعي، وربما بكثير من الاندفاع وكثير من العبث... انزلقت بطواعية نحو الهاوية، كنت على بعد خطوة واحدة من خسارة المعركة، مصارحة ذاتي والوصول إلى ذاك السلام الداخلي الذي أفتقده، تلك كانت معركتي الكبرى.

تتقاذفني الجهات لتجعل من كائنا أقرب إلى السراب، مجرد جسد يحاول أن يكمل السير نحو وجهة لا أعرفها، كنت أعرفها قبل ذلك، كنت أعرفها قبل أن يختل الميزان وقبل أن تطفئ إحداهن تلك الشمعة التي كانت تنير دربي. قبلها بسنوات كانت أحلامي تشبهني، إلا أن المنعرجات كثرت في حياتي فصرت عند كل منعرج أفقد أحد أحلامي، ثم نظرت للمرآة فوجدتني شخصا آخر بملامح تشبهني، صرت لا أشبه أحدا من الذين يحيطون بي بعدما كنت أشبههم جدا، أين فقدتني؟ لم أكن قادرا على أن أجد لنفسي جوابا وسط الركام داخلي، تلك العزلة التي تعيشني، ذاك البعد، ذاك النفور الذي ما عدت أستطيع مقاومته، تلك الضحكة التي رفضت الانكشاف واختارت مصير عزلتي، ذلك الأنا الذي أصبحت عليه لا يروقني، لا يروق أحدا ممن اختارهم القدر ليصنعوا بسمتي... كنت أحس بغربة لا أفهمها، لم تكن ضياعا ولا تيها ولا انزياحا عن محيطي ولا انفصاما

وإن كانت صراعات كثيرة بداخلي تخنقني. صراعات هزمتني في مراحل كثيرة من حياتي وجعلتني أفكر في وضع حد لكل ما أعيشه، فكرت في أن أعود إلى حيث كانت بدايتي، لكني لم أستطع، قيدتني الحياة.

الحياة لا تمنحنا كثير الفرص لنقول من نحن، تدفعنا هي لنعبر عن أنفسنا لحظة ننجر خلفها بكثير من السذاجة وكثير من الإصرار على أننا نفعل كل شيء بإرادتنا وباختيار كامل منا، لا نفكر قط أننا غير قادرين على التحرك خارج إطار محدد، لا نفكر أن هناك قيودا كثيرة لا تحد من حركتنا لكنها تجعلنا نتحرك دون وعي، وبعشوائية...

لم تمنحني الحياة الفرصة لأقول من أنا، ربما تنظر إلي كمجرد عابر بجانبها لذلك لم تمنحني الحق في قول من أنا، لكنها في المقابل منحت الحق لكثيرين كي يقولوا من أنا.

بصدق لم أكن أدري من أنا، لم أقتنع بنفسي يوما، لا أدري من هو إسلام مغناوي، حتى اسمي لم يسبق لي أن تدبرت في ما يعنيه.

المقربون مني يقولون أني فاشل جدا، يقولون أن نظرتي للحياة مختزلة في زاوية واحدة، العبث.

الذين يعرفونني من خلال مقالاتي ونصوصي يقولون أني كاتب ناجح، يقولون أن رؤيتي للحياة ذات بعد فلسفي عميق.

أمي لا يهمهما كل ذلك، يهمها أني ابنها فقط.

لم أختر أن أكون عبثيا، ولا اخترت أن أكون كاتبا، الحياة تكفلت بكل ذلك، هكذا وجدتني أفتي في السياسة، وهكذا وجدتني أفتي في الحب.

لم أعتقد وأنا أغادر قريتي ذات صيف، أن ذاك الطفل سيستطيع أن يعيش خارج حضن أمه، وأنه بعد سنوات طويلة سيجد نفسه في مواجهة سؤال بعث في ذاكرته حنينا عميقا لأمه ولكل سكان قريته هناك بغرب الريف.

- هل تعتقد حقا أن الوقفات الاحتجاجية لساكنة الريف هي ذات خلفية انفصالية؟

كان السؤال غريبا، وجدته يعود بي سنوات للخلف، أتأمل في مخيلتي وجه أمي بتجاعيده الكثيرة، أتأمل أيضا ملامح ذاك العجوز الذي كان يقطن بكوخ من قصدير على مقربة من منزلنا. كيف لتلك الملامح البريئة أن تفكر في الانفصال عن وطن، متأكد أنه يحبه أكثر من كوخه البسيط.

كان الصحفي المصري يتأملني وكأنه أحس أن سؤاله قد بعث في حنينا ما، لكنه كان مضطرا لينبهني أنه ينتظر الجواب. نظرت إليه مبتسما:

- سكان الريف يبحثون عن الحب فقط.

المقربون مني يُرجعون سبب فشلي للحب، يقولون أن الحب حول حياتي لعبث، صديقي أكرم كان يعتقد ذلك أيضا لذلك لم أستغرب

وأنا أجده يطلب مني شيئا غريبا، أن أحاول الإيقاع بحبيبته التي بدأ يرتاب في تصرفاتها. لم أكن أعتقد أنه سيتجرأ على أن يطلب ذلك مني شيئا كهذا وإن كنا أصدقاء منذ مدة طويلة، كما لم أكن أعتقد أنه بإمكاني الموافقة على هكذا طلب، لكني وافقت بعدما أقنعني أنه لا يفعل ذلك إلا لأنه يحبها جدا، ويبغي التأكد من أمر وفائها قبل التقدم لخطبتها.

لم أسأله لماذا يطلب مني ذلك أنا بالتحديد، لكنه أجابني عما لم أسأله، قال أني أجيد معاملة النساء وأني الوحيد الذي بمقدوره أن يقتحم حياة حبيبته الصعبة المنال. لا أدري بأي منطق اعتقد أني أجيد معاملتهن وهو يعلم أنه لا نساء في حياتي، يعلم أن إحداهن تركتني من أجل آخر. ربما قال ذلك ليقنعني فقط.

كان متحمسا جدا وبشكل غير مفهوم ليقيس مدى وفاء حبيبته لذلك منحني رقم هاتفها وتوسلني بالاستعجال في تنفيذ ما طلبه مني، أصر أيضا على أن أطلعه على كل التفاصيل إلا أنه قبل ذلك أخبرني الكثير عن شخصها، وكان أهم ما أخبرني به أنها تدرس الرياضيات بكلية العلوم، تقرأ كثيرا قبل النوم خاصة الروايات، وأحيانا تكتب، أخبرني أيضا أنها كتبت من أجله بعض القصائد ورسائل حب مؤثرة.

بعث بداخلي ما قاله عنها تحديا، فلسنا دائما نصادف أنثى مثلها، أنثى تدرس الرياضيات نهارا وتقرأ الروايات ليلا. كان تحديا حقيقيا أن أجعلها تقع وإن كان ذلك سيؤذي أكرم كثيرا.

لليلتين متتاليتين ظل تركيزي كله منحصر حول التفكير في الخطوة الأولى التي يجب أن أقوم بها، كان كل شيء متوقف على تلك الخطوة. كيف سأقدم لها نفسي بعد أن تسألني من المتصل؟ كيف سأقنعها بألا تغلق الخط في وجهي؟ فليس سهلا أن تخدع أنثى تقرأ وتكتب أدبا، فكرت لليلتين في الأمر وعند العاشرة ليلا من ذات صيف قمت بالخطوة.

اتصلت بها، لم تجب، انتظرت خمس دقائق وأعدت الاتصال:

- السلام عليكم..

- السلام على من اختارها القدر لتعصف بهذا الحزن المنثورة شظاياه فوق ذاكرتي وفؤادي، السلام على من حطت بها سفينة القدر على شط دنياي لتنقذني من الغرق وسط يم أوجاعي. سلام عليك سيدتي، أكيد ستسألينني من أنت، دعيني أجيبك قبل أن تسألي.. أنا لا أحد وأريد أن أكون كل شيء، أنا مجرد مسالم أبحث عن من تحدث حربا بداخلي...

حاولت أن أكمل لكنها قاطعتني:

- اصمت، يكفيني هذا، لا أريد أن أعرف من أنت، يكفيني أنك تبحث عن من يحدث حربا بداخلك، يكفيني أن نتشابه في الوجع، ولكني أخاف أني غير قادرة على إنقاذك..

أحسست بتأوهها العميق من خلف سماعة الهاتف، فقاطعتها بدوري:

- متفرغ أنا غدا، ما رأيك في فنجان من القهوة يشبه أوجاعنا في سواده؟

- الرابعة زوالا؟

- أين؟

- تعرف مقهى "الساعة"؟

- طبعا..

- انتظرني بالطابق الثاني داخل قاعة عرض الأفلام.

- أحقا لا تريدين أن تعرفي من أنا؟

- وحتى عندما التقيك لا تخبرني من أنت، لا تفسد هذا الرقي. أرجوك.

قبل الموعد المتفق عليه بعشر دقائق ولجتُ قاعة عرض الأفلام الفارغة، كانت مجرد غرفة صغيرة في الطابق الثاني من المقهى، تحتوي على شاشة عرض وبعض المقاعد، وتعرض بعض الأفلام من حين لآخر، غالبا ما تكون أفلاما أجنبية مخصصة للسياح الذين يشكلون النسبة الأكبر من زوار المقهى.

وعند الرابعة عصرا بالضبط، أحسست بخطى بطيئة تتجه نحو القاعة، ركزت نظري على الباب، كنت غير متأكد أنها هي لأن أكرم لم يكن يملك صوراً لها بداعي أنها لا تحب التقاط الصور. كنت أجهل شكلها تماما لكني توقعت أنها هي.

كانت بقامة فارهة، وقد سمكي، شعرها المنسدل فوق كتفيها كان بلون غريب، بعضه يميل للأسود، وبعضه أشقر... ترتدي بنطلون جينز أزرق ممزق من فوق الركبة بقليل، وقميص صيفي أبيض مكتوب عليه بخط عريض باللغة الانجليزية: "أنت تُكملني".

لا أدري إن كان هو أكرم الذي يُكملها، ولكن إن كان هو فلماذا حضرت للقائي؟

تقدمت نحوي مبتسمة، تأكدت حينها أنها هي:

- قررت أن أحدث بداخلك تلك الحرب، ألست أنت هو؟

- بالضبط أنا هو، إسلام.

- أنا هاجر كما تعرف.

- وأعرف أيضا أن اسمك هيروغليفي الأصل ويعني زهرة اللوتس..

- جميل، لم أكن أعرف ذلك، كنت أعتقد أن اسمي مشتق من الهجرة..

- في حياتنا نجهل أشياء كثيرة وننتظر من يأتي ليعلمنا إياها، نكون محظوظين إن أتى، ولن نكون تعساء إن لم يأت.

- السيئ أن يأتي في الزمن الخطأ.

- ألا نستطيع أن نجعل منه الزمن الصحيح؟

- الخيانة جريمة سيدي.

- الخيانة بداية حب آخر سيدتي..عندما نحب جدا نخون جدا.

- ما ذنبه لأخونه؟

- ذنبه أنه أحب أنثى علمتها النصوص التمرد، ذنبه أنه لم يمزق كل الروايات وكل الدواوين بخزانتك...

- من أنت أيها الغريب، كيف لك بقراءة ما بداخلي، لماذا أنا؟
- طلبت مني ألا أخبرك من أنا، يكفي أن تعرفي أني مجرد مسالم أبحث عن من تحدث بداخلي حربا.

تحدثنا كثيرا، تلاعبنا وتقاذفنا بالكلمات كثيرا، ثم حدث الصمت، خمس دقائق من الصمت، كانت تجلس على يساري، أنظر في عينها بجرأة وتنظر في عيني بنفس الجرأة. لحظة عضت على الجانب الأيمن من شفتها السفلى، ونطقت بصوت منبعث من أعماقها:

- هزمتني أيها الفيلسوف.

ومدت يديها معا لتمسكني من أعلى قميصي وسحبتني نحوها...

- احذري كوب القهوة.

لم نغادر المقهى معا، طلبت أن يغادر كل منا لوحده، لم أسألها عن السبب، تركتها تغادر أولا ولحقت بها بعد عشر دقائق. كنت منتشيا جدا، لكنها كانت مجرد خطوة أولى في تحدٍ ولجته للتو ويجب أن أخرج منه منتصرا. هكذا فكرت حينها لذلك ما كان بإمكاني أن أخبر أكرم بالحقيقة، كنت ملزم بالكذب. اتصلت به وأخبرته أني قادم إليه لأخبره بشيء طارئ، توسلني أن أخبره عبر الهاتف لكني رفضت، لم أفكر كثيرا فيما سأخبره به.

وجدته ينتظرني عند الباب، ودون أن يتركني ألقي التحية، قال:
- أخبرني ماذا فعلت بسرعة.

- تحبك، تحبك جدا يا صديقي...

بنفس الحماس وببسمة عريضة قاطعني:

كيف عرفت؟ أخبرني بالتفاصيل أرجوك.
- اتصلت بها، حاولت أن أغريها لكنها أغلقت الهاتف في وجهي وطلبت مني ألا أعاود الاتصال، بعدما أخبرتني أنها تحب شخصا واحدا وولدت من أجل شخص واحد اسمه أكرم، عاودت الاتصال مرات كثيرة لكنها لم ترد.

عانَقني بشدة وبدا أنه صدقني جدا رغم أن التلعثم في كلامي المرتجل كان واضحا.. الحب أعمى بحق.

لم يكن أكرم يشبهني حتى وإن كان صديق طفولتي، كان مختلفا عني بعمق، درس الأدب الفرنسي بالجامعة وبعد تخرجه اشتغل أستاذا لنفس المادة بإحدى المدارس الثانوية الخاصة فضلا عن اشتغاله أيام السبت والأحد بواحد من أشهر مراكز اللغات بالمدينة... كان يحب اللغة الفرنسية ويقرأ كثيرا للفرنسيين، تعمق جدا في دراسة كتابات "ڤولتير" حتى أنه اشتغل على أحد أعماله في بحث تخرجه الجامعي.. غير أن الغريب في الأمر أني ما كنت أحس في شخصيته بتأثير كتابات فولتير ولا غيره من الفرنسيين الذين كان يقرأ لهم بالتزام، كان حساسا، وهادئا، وأيضا كان يبقى صامتا أغلب الأوقات... لم يجعل منه الأدب الفرنسي ذاك الشخص المتمرد، ذاك الشخص الثائر، ذاك الشخص الباحث عن تجاوز ذاته... علاقته كانت محدودة جدا، كنت صديقه الوحيد، وكانت هاجر الأنثى الوحيدة التي استطاعت أن تقتحم حياته لذلك أحبها بعمق. تواجدها في

حياته أحدث بعض التغيير في شخصه فأصبح أكثر انفتاحا على الحياة.. أصبح يحب الموسيقى الشبابية الحديثة بعدما كان لا يستمع إلا للكلاسيكيات الفرنسية والانجليزية...

كان أكرم بسيطا، لا يعيش ولا يفكر إلا في حاضره، أما ماضيه فكان صافيا وطاهرا دون نقط سوداء. لم يعتقد أن مستقبله سيكون بلون واحد، السواد.

في لقائي التالي بهاجر، بنفس المقهى قررتُ أن اخبرها الحقيقة، أخبرتها بكل شيء، أخبرتها عن صديقي أكرم وعن خطتنا الإيقاع بها، أخبرتها أيضا أني لم أخبره بالحقيقة وأني أخبرتها أنها مثال للشرف والوفاء... استغربتْ لكنها لم تنزعج بل ضحكت كثيرا، فهمت أنها لا تمانع في أن نستمر في اللعبة.

صرنا نلتقي كل أربعاء، توسلتني كثيرا أن نغير مواعيدنا لزوال السبت، كانت تقول أنه يصعب عليها أن تلتقيني الأربعاء وتلتقي صديقي أكرم الخميس، رفضت متعللا بمباريات الدوري الاسباني والانجليزي والإيطالي... ما كان يجدر بي أن أخبرها أن زوال السبت محرم على غير التي تسكن القلب، تلك التي رحلت من أجل آخر.

- لماذا لا تغيرين مواعيدك مع اكرم؟

- لا أستطيع، لأنه يشتغل طيلة الأسبوع ما عدا الخميس.

- إذا كان يصعب عليك لقائي فدعينا ننتهي من كل هذا.

لا ادري لماذا طلبت منها ذلك بتلك البساطة، ربما مجرد اختبار مبدئي، لا أدري أيضا ما نوع العلاقة التي كانت تربطنا، قطعا ليست حبا ولا صداقة. علاقة خيانة؟ أيُمكن أن نسميها هكذا؟ فلنقل أنها علاقة دون اسم.

- أفكر في أن انهي علاقتي مع أكرم.

- إن فعلت ذلك فستكون هذه آخر مرة أراك فيه. تواجدي معك هنا بهذه الزاوية بسبب صديقي، أنا معك لأنك حبيبته، أحب أن أستمتع بما ليس لي.

- مجنون، ولكن أتدري؟ أنا مثلك، أحب ما نفعل.. ساديان نحن؟

- ربما، أتحبينه؟

- جدا.

- من يحب لا يفكر في أن ينهي علاقته مع من يحب.

- أنا أحب وأفكر في أن أنهي علاقتي معه من اجله.

كان يصعب علي أن أتركها، قررت عدة مرات ألا أراها مجددا وأنه يجب أن أضع حدا لهذا التحدي الذي طال، لكني انهزم فأعود إليها كل أربعاء. كنت أشتاق إليها أيضا، طبعا دون أن يغادرني الخوف من أن يكتشف أكرم أمرنا، ليس الخوف من أكرم نفسه بل الخوف من كسر خيط نبيل جمعني به ولسنوات.

مرت السنة، ثم السنة والنصف، كنا متفقان انه لا اتصالات بيننا ولا رسائل نصية إلا مساء الثلاثاء من أجل تأكيد موعد الأربعاء، لأنه في أية لحظة قد أكون رفقة أكرم، الذي اعتدت أن أزوره كل ليلة تقريبا في شقته التي يكتريها في أحد الأحياء الراقية بوسط فاس، كان يقطن وحيدا مذ أن قررا أبويه المغادرة نهائيا للاستقرار بمنزلهم

الريفي وسط قرية صغيرة نواحي مدينة مكناس. كنت أحاول بزيارتي له أن أكسر رتابة لياليه المتشابهة. الحقيقة أني كنت أحاول كسر رتابة ليالي أنا، فقد كنت أقطن وحيدا أيضا مذ سنوات طويلة ربما اختيارا وربما مكرها. ولكن المتأكد منه أني في البداية اشتهيت أن أعيش وحيدا، اشتهيت أن أعيش رفقة نفسي فقط، اشتهيت أن أتحرر من قيود العائلة وأن أكتب لنفسي حياة دون قواعد. حاولت أن أقنع نفسي على أن الوحدة قد تكون اختيارا وليست مجرد إكراه تفرضه علينا الحياة..

اشتهيت الحياة بتمرد مطلق، اشتهيت أن ألج المنزل في وقت متأخر أو قد لا ألجه أصلا، فلا أحد خلف الباب ليحاسبني، لا أحد خلف الباب لينتظر عودتي، لا أحد خلف الباب لتعاتبني عيناه، لا أحد خلف الباب لأجيبه في صمت...

ثم أصبحت الوحدة لعنة. أصبحت الجدران غير قادرة على تحملي، وأصبحت شاشة التلفاز موحشة، وأصبح السقف فوق رأسي أسودا، وأصبح الباب حاجزا، وأصبحت تلك الكتب والروايات بتلك الرفوف مبعثا لذكريات موجعة... حتى مائدة الأكل غدت في نظري خصماً يزاحمني في المكان.

جعلتني الوحدة الموحشة أكره نفسي في أحايين كثيرة، وجعلتني أكره أن يحل الظلام لأجبر على العودة إلى المنزل حيث تستقبلني نفس الأشياء التي لا تتحرك. في لحظات كثيرة هزمتني وحدتي لتصير أكثر

أحلامي أهمية أن أجد خلف الباب من يعاتبني على تأخري، من يسألني كيف كان يومك، من يسألني إن كنت جائعا، من يزاحمني في شغب على جهاز التحكم، من يصرخ في وجهي إن أنا غيرت القناة... لكنه لا أحد خلف الباب مذ سنوات. أنا فقط أفتح الباب لأصبح خلفه، ألقي السلام هامسا فأرده على نفسي جاهراً، ربما كان أكرم وهاجر... مجرد احتياج أهرب عبره من وحشة وحدتي، أو ربما هذا ما كان عليه الحال في البداية قبل أن تتطور الأمور وأصبح في وضعٍ إن خُيِّرت بينه وبين وحدتي لاخترت وحدتي بكل بؤسها وأوجاعها.

كنت وهاجر متفقان على حذف كل الرسائل وكل المكالمات بيننا في الحين، إلا أنه وفي غمرة انشغالاتي حدث أن نسيت حذف آخر رسالتين: "أيها الخائن، غدا كالعادة الرابعة زوالا، نفس المقهى، نفس الساعة، نفس الطاولة، نفس.." أجبتها بسرعة: "طبعا أيتها الخائنة". وأعدت هاتفي لجيب البنطلون دون أن أحذف الرسالتين.

بعدما أنهيت بعض الارتباطات، قصدت شقة أكرم مباشرة، كنت في حالة سيئة أثر الحر والتعب الشديدين، لذلك كان أول ما فعلته أني فكرت في أخذ حمام بارد، كان الحمام بشقته رحبا وجميلا بأرضية رخامية دائمة اللمعان.

دخلت الحمام، إلا أني قبلها أفرغت جيوب البنطلون من محفظتي وقلمي وهاتفي... تركت كل شيء فوق الطاولة بجانب الأريكة التي يتكئ عليها أكرم، ناسيا أمر الرسالتين غير المحذوفتين خاصة وأنه اعتاد

النبش بهاتفي كما أفعل أنا أيضا بهاتفه، لم يكن يزعجني ذلك ولا أعتقد أنه كان يزعجه.

كنت مستلقيا في هدوء تام داخل حوض الاستحمام متأملا حياتي، ما حققته وما لم أحققه، ما أنا مستعد على المقاومة من أجله وما أنا مضطر على التنازل عنه حتى أستمر بتوازن... وفجأة تذكرت أني لم أحذف الرسالتين، أحسست بضربات قلبي ترتفع وبسحابة وامضة تمر أمام عيناي. غادرت حوض الاستحمام مسرعا وارتديت بنطلوني وقميصي بسرعة أكبر، وألقيت بنفسي خارجا، تعثرت بباب الحمام وكدت أقع إلا أني استندت على الجانب الأيسر من الباب فأعدت التوازن لجسدي. كان أكرم يحملق بي، لم يفهم ماذا أصابني حتى أغادر الحمام بتلك السرعة وبتلك الطريقة، سألني ما بي، فقلت أني نسيت أن أجري اتصالا مهما. أخذت الهاتف من فوق الطاولة، حذفت الرسالتين بسرعة، وخطوت إلى جانب النافدة متظاهراً بإجراء مكالمة وهمية، والحقيقة أني كنت أتأمل ملامح أكرم لعلي أفهم ما حدث وأنا بالحمام. توقعت أنه لم يقرأ الرسالتين، بدا لي أنه لا شيء متغير فيه خاصة بعدما بادرني بمستملحاته المعتادة... ضحكنا كثيرا ليلتها.

إلا أني بالرغم من ذلك عدت للمنزل مشوش التفكير، لم تكن لي قدرة على فعل شيء ولو حتى على الكتابة كما اعتدت أن أفعل كل ليلة قبل النوم، فلطالما كانت الكتابة تساعدني على النوم لأني عبرها أفرغ

الكثير من التراكمات. لا يهم ما أكتبه، سواء كان نصا أدبيا أو مقالا سياسيا... المهم أن أكتب.

لا أتذكر متى بدأت الكتابة لأول مرة، لكني أتذكر أني لم أختر الكتابة، فلم تكن الكتابة في يوم اختيارا. الذين يمارسون الكتابة يفهمون ما أقول، الكتابة هي ذاك المنفذ الوحيد لنا نحو الحياة، منفذنا نحن من جردهم الزمن من سبل النجاة بأنفسهم، نحن من أغلق الزمن في وجوهنا كل منفذ نحو الحياة. ربما لسنا أكثر بؤسا من الذين اختاروا الصمت ولا من الذين اختاروا الصراخ، نحن الذين نخاف الصمت ونخاف الصراخ فوجدنا في الكتابة حلا. لا ربما ليس حلا، ربما هي مجرد محاولة لإفراغ الذاكرة من بعض سوادها، محاولة ناجحة؟ أحيانا أجل.

إننا لا نكتب لأننا نريد أن نكتب، إننا لا نكتب لأننا نريد الآخرين أن يقرؤوا ما نكتب، لا نكتب من أجل أن نهزم القراء ولا لأن نكسب تعاطفهم، لا نكتب ليصفقوا لنا... إننا نكتب من أجل أنفسنا، نكتب لأن هناك من الألم ما يلزمنا بالكتابة، نكتب لأن هناك اختلال عميق يجب أن يُكشف على الأقل.

بالكتابة نستطيع القول أن كل شيء بخير أو أن كل شيء سيء، بالكتابة نستطيع أن نغادر ذواتنا نحو ذوات أخرى، وبالكتابة نستطيع أن نغادر زمننا نحو الغد فنتوهمه مشرقا وإن كانت أحيانا تخوننا الأقلام فترحل بنا نحو الماضي حيث كل البؤس ابتدأ.

لسنا أقوى من الذين اختاروا الصمت، ولسنا أضعف من الذين اختاروا الصراخ، نحن فقط نخاف، نخاف من كل شيء حتى من مواجهة أنفسنا، حتى عندما ننظر للمرآة نخاف أن نكتشف حقيقتنا، فنبتسم محاولين أن نخدع من بالمرآة. إننا نجيد الاختباء بين أوراق دفاترنا ومذكراتنا وصفحات الجرائد والمجلات والكتب...

إننا نكتب لأننا نخاف.

لكن الخوف لم يمنعني من مداعبة يد هاجر بتلك الزاوية من مقهى "الساعة"، ما كنا نحس بمن حولنا إلى أن وجدناه يقف عند رأسينا. تطلعنا به في صدمة، تركت يدها بسرعة، فعلت نفس الشيء، وكأننا نؤكد جريمتنا.

- شمايت

كان هذا كل ما قاله أكرم قبل أن ينسحب.

اعتقدت أن كل شيء سينتهي حينها، وأن نعته لنا بالشمايت هو نهاية عبث طال. اعتقدت أيضا أنه سيستطيع مقاومة حبه لها ليبتعد عنها للأبد. لم أفكر في نفسي، كنت أعرف أنه لن يكون قادرا على أن يغفر لي وأن صداقتنا انتهت لحظتها، لذلك لم أحاول الاتصال به أو زيارته كما اعتدت. كنت أعرف أيضا أنه حتى وإن التقاني صدفة فسيتخذ طريقا مخالفا للذي أمشي فيه...

قررت أن أنسحب من حياتهما معا وفي صمت، لم يكن يهمني إن غفر لها، ولا كان يهمني إن أقنعته بوفائها، كما لم أبالي إن هي حملتني المسؤولية عن كل شيء وطهرت نفسها. كنت مقتنعا أني أخطأت، وكأنني نضجت لحظة مغادرتي للمقهى ذاك المساء، أو على الأقل هذا ما حاولت أن أقنع به نفسي.

بعد مرور الشهرين وبضعة أيام على حادثة المقهى، كنت قد شيدت لنفسي مستقراً آخر في حضن إحداهن، سلوى. كانت جذابة ودافئة إلا أنها لم تكن أبدا بدفء هاجر ولا بجرأتها، كنت بخير رفقتها قبل أن تصلني تلك المكالمة من رقم مجهول مساء ذاك الخميس:

- السلام عليكم.

صوتها لم يترك لي الفرصة لأرد التحية، ما كنت أحتاج لأسألها من أنتِ، فنبرة صوتها فيها من الإغراء ما يصعب نسيانه.

- أمازالت أوجاعنا تتشابه أم أنكِ أوجدتِ لنفسك أوجاعا أخرى مختلفة؟ لا بأس إن فعلتِ فمن حقك العيش بعيدا عن عبثي.

- حاولت لشهرين لكني فشلت أيها الخائن، أجل غفر لي وربما أصبح يحبني أكثر لكن لا أعرف ما بي، وكأن وجودك في حياتنا ضروري لتكتمل سعادتي معه، وكأن حبي له لا يكتمل إلا بخيانتي له، أو دعني أقول بخيانتنا له.

- أكرم لا يستحق منا هذا.

- صدقني، هكذا فقط يمكنني أن أُسعده، أتريده أن يكون سعيدا رفقتي؟

- طبعا.

- إذن دعنا نخونه، لا أستطيع أن أمنحه السعادة إلا إذا خنته.

- متأكدة؟

- دعنا فقط لا نلتقي بنفس المقهى ولا بنفس اليوم.

- مقهى "ليديا"، تعرفينها أكيد.. الجمعة.. الرابعة والنصف؟

- أحضر لي معك كتابا أو رواية أو ديوان شعر... فقط أحضر لي ما أقرأه، أو أحضر لي آخر كتاب قرأته.

لم أكن أدرك أهو أنا الذي يتحدث أم أن رغباتي لم تترك لي القدرة على التفكير، أكان نضجي مجرد حيلة حاولت أن أثبت بها براءتي أمام نفسي؟ ماذا لو كنت فعلا قد اقتنعت أن سعادة صديقي لا تكتمل إلا بخيانتنا له؟

لا يهم سألتقيها.

حملت كتاب "لماذا تتحارب الأمم؟" لريتشارد نيد ليبو، وغادرت إليها، وجدتها تنتظر في زاوية المقهى. عانقتها في شوق لكن دون أن تنجلي صورة اللقاء الأخير عن مخيلتي، كنت أتوهم ولوج صديقي المقهى في أية لحظة.

- كيف غفر لك؟

- من يحب يغفر.

- حتى الخيانة؟

- قُبلة واحدة كانت كافية، هكذا أنتم الرجال يهزمكم دلال الأنثى.

- نحن الرجال؟

- لماذا أحضرت لي هذا الكتاب بالضبط؟ أهو آخر كتاب قرأته؟

- لأني مجرد مسالم، وابحث عن من يحدث حربا بداخلي.

ضحكت عاليا لحظتها، لا بد أنها تذكرت مكالمتنا الأولى أو ربما تذكرت غير ذلك. تحدثنا كثيرا، وأخطأنا قليلا مساء ذاك اليوم... اتفقنا على أن نكمل السير بتلك الطريقة، نلتقي كل جمعة بنفس المقهى وبنفس التوقيت أيضا. كل ذلك من أجل إسعاد صديقي فقط.

عند السادسة والنصف غادرت هي المقهى، غادرتْ قبلي بنصف ساعة، كنا قد اتفقنا ألا نغادر معا فلا مجال للخطأ مرة أخرى. أما أنا

وقبل أن أعود للمنزل، فقد كنت ملزما بالالتحاق بأصدقائي في مقهى "الساعة" كما اعتدت أن أفعل ذلك ليلة كل جمعة، لأنها الليلة المخصصة لإحدى الفرق الموسيقية الشابة التي تعزف مقطوعات رائعة بسطح المقهى.

اتصلت بأصدقائي فأخبروني أنهم بانتظاري هناك وأن الفرقة بدأت بالعزف قبل دقائق، أسرعتُ الخطى حتى لا أتأخر أكثر لأني كنت حقا أستمتع بعزفهم.

كانت المقهى تتشكل من طابق أرضي وطابقين علويين، فضلا عن سطح بمساحة رحبة، يُطل على ساحة أبي الجنود(بوجلود) وعلى سوق الطلعة الكبيرة، مع العلم أن الوصول للسطح يقتضي العبور بالطوابق الثلاث.

كان صدى العزف الجميل يصل إلى باب المقهى، أحسست وكأنه يدفعني لأسرع الخطى وأنا أصعد السلم في طريقي للسطح، كنت أحرك جسدي انتشاء بموسيقاهم عند كل خطوة، إلا أني فجأة وجدتني أقف جامدا، مصدوما عند الطابق الثاني. أكان هو حقا؟ أكانت هي حقا؟ أكرم وسلوى.. صديقي وحبيبتي أو المفروض أنها حبيبتي.

الأكيد أن سلوى كانت مجرد اسم عابر في حياتي، ودورها كان سينتهي عندما أشعر بالملل من تواجدها غير أني لم أتوقع أبداً أن

يوقع بها أكرم بهذه الطريقة، ليس سهلا علي تقبل أن رجلا آخر أخذ أنثى مني، هذا يعني أنها وجدت فيه ما لم تجده في. إحساس صعب، ربما إحساس بالنقص، فقط حينها فهمت كيف أحس أكرم عندما صادفني رفقة هاجر.

بقيت متسمرا في مكاني دون القدرة على التوجه نحوهما، ما كان يصح أن أنعتهما بـ "الشمايت" كما فعل هو، فليس هكذا يُرد الدين. كانت سلوى تتطلع في باندهاش وكأنها لم تصدق انه أنا، لكنه لم يكن مندهشا، كان يبتسم، لم يترك يدها رغم أنها حاولت سحبها. واضح أنه خطط لكل ذلك فقد كان يعرف جيدا أني أزور المقهى كل جمعة بذلك التوقيت، فهو من عرفني على المقهى، وهو من عرفني على الفرقة الموسيقية أيضا لكنه انقطع عن الحضور إلى المقهى لما يزيد عن السنتين بسبب ظروف عمله.

ابتسمت لهما وأكملت طريقي في اتجاه سطح المقهى، كان يهمني أن أبدو منتصرا رغم الهزيمة.

لم أنم ليلتها، ظلت مخيلتي تحاول نسج خطوتي التالية، هل أنهي كل شيء وأنسحب بعيدا عن الثلاثة، أم أخبر هاجر بما رأيته وأجعلها تنهي علاقتها معه للأب. أعرف أنها أبدا لا يمكن أن تغفر له فعل الخيانة وإن كان هو قد غفر لها. ماذا لو غفرتُ أنا لسلوى وكأن شيئا لم يحدث و أستمر في اللعبة، هل سأقدر؟

لم أستطع أن أخلُص لحل لذلك اخترت أن أغلق هاتفي لمدة أسبوع ولأقرر بعدها ما يجب أن أفعله، إلا أن زيارة أكرم المفاجئة لي بالمنزل لم تترك لي الفرصة لأكمل الأسبوع بعيدا عن كل شيء.

- غريب أن تزورني بعد كل هذا..

- هل ستتركني واقفا بالباب؟

- الأمر لا يستحق "صديقي"، تفضل.

- صديقك؟ متأكد؟

- لماذا حضرت؟ لا أعتقد أنك حضرت لتسألني هذا.

- أرأيت إلى ما أوصلتنا إليه؟

- الذي لا يثق في حبيبته كيف له أن يثق بصديقه؟ طلبك لي يا "صديقي" باختبار حبيبتك أحدث شرخا بداخلي.

- إنك تبرئ نفسك، اعتقدت أنك ستعتذر.

- لم أخطئ لأعتذر.

- خيانتك لصداقتنا ليست خطأ ؟

- ليست خيانة، أنا نفذت ما طلبته مني، طلبت مني أن أختبر حبيبتك، وأن أحاول الإيقاع بها ففعلت.

- ولماذا لم تخبرني بالحقيقة؟

- أخبرتك بالحقيقة، إنها تحبك ومازالت.

- ولماذا لم تخبرني عن علاقتك بها؟

- علاقتي بها؟ ماذا تعني؟

- لا تراوغ صديقي، عناقكما بالمقهى ماذا تسميه؟

- مجرد زلة، كان اللقاء الأول والأخير.

قلت ذلك لأن هاجر كانت قد أخبرتني أن هذا هو ما أقنعته به ليغفر لها، كان مهما جدا أن تتطابق كذبتنا.

- يصعب أن أصدقك.

- أنت لا تثق بحبيبتك فكيف تصدق من كان صديقك.

- كان ذاك لقائي الأول أيضا بسلوى، لاشيء يربطنا.

- حتى مداعبة يديها لا تعني شيئا؟

- صدقني أمسكت يدها بعدما لمحتك تصعد السلم، كنت أحاول الانتقام منك وفقط. لننسى كل شيء صديقي.

- سنقدر؟

- طبعا.. عانقني " الشماتة ".

ضحكت أيضا لكني عانقته ببرود تام، لقد تهدم كل شيء وما عاد الترميم ينفع. غادر بعدما طلب مني أن ألتحق به في شقته باليوم الموالي عند الخامسة زوالا، غادر وهو يبتسم، ربما غادر مقتنعا بما قلته، أما أنا فلم أصدق كل ما قاله، لم أصدق رغبته في مصالحتي وفي إعادة بناء صداقتنا، توقعت أنه يخطط لشيء ما فقد كنت أعرف طبعه جيدا.

أعدت تشغيل هاتفي بعدما غادر، وجدت أن هاجر قد حاولت الاتصال بي عدة مرات كما أنها تركت لي رسالتين صوتيتين. والسيئ أنه لاشيء وصلني من سلوى، صمتها وغيابها هذا أكد لي أن أكرم يكذب وأن ما بينهما ليس مجرد لقاء عابر.

الإنسان يصمت إن كان مذنبا ولا يصمت إن كان مظلوما.

اتصلت بهاجر أخبرتها بكل ما حدث، أخبرتها حتى عن لقاء أكرم وسلوى. كانت تعرف أن في حياتي أنثى أخرى غيرها، لكنها ما كانت تعترض على تواجد أخريات في حياتي ما دمت أقبل تواجدي في حياتها. الغريب في الاتصال أنها أخبرتني بكونها هي أيضا على موعد مع أكرم بشقته في اليوم الموالي وبنفس التوقيت الذي طلب مني فيه الالتحاق به، قالت أنها ستدعي المرض لكي لا تحضر غير أني أصررت على

حضورها، كان فضولي شديدا لاكتشاف ما يخطط له وما ينوي فعله.

اعتقدت أنه يريدني أن أجدها رفقته بالمنزل ليثبت لي أنها تحبه، وأيضا ليثبت لي أنه انتصر في لعبة إثبات "الرجولة. ولكن وأنا ألج باب شقته تفاجأت بسلوى تجلس قبالة الباب. صُعقت لحظتها، ليس لأنه امتلك سلوى أيضا، ويريد أن يثبت لي أنه امتلكهما معا، ولكن لأنه لم يكن يعلم أن حبيبته هاجر هي شقيقة سلوى.

سلوى أيضا لم تكن تعرف أن شقيقتها على وشك ولوج الباب بعد دقائق.

لم أكن سيئاً ولا كان في عمقي شر يفوق ذاك القدر العادي المشترك بين كل الناس، لا أدري لما فعلت كل ذلك، ليس لأن فعل الخيانة أصبح جزء من تكوين شخصيتي، فكل شيء كان صدفة ولم اقصد في لحظة أن أؤذي سلوى ولا أكرم ولا هاجر...

في البداية لم أكن أعلم أنهما شقيقتين، علمت بذلك متأخرا جدا، بالضبط قبل أسبوعين من مصادفتي لسلوى وأكرم بمقهى "الساعة"، كانت صدفة كما كانت علاقتي بسلوى أيضا مجرد صدفة.

التقيتها أول مرة بمكتبة صغيرة تبعد مسافة خمسة دقائق عن الحي الذي تقطنه هاجر، كنت قد أوصلتها يومه للحي وعرَّجت على المكتبة لعلي أجد كتابا جديدا أو رواية تستحق الانتباه، لم أتصور أن القدر سيكتب لي أن أصادف جسدا فيه من الأنوثة ما سيُنسيني ما جئت من أجله.

أتذكر أنها كانت تقف على مقربة من دُرج الروايات العربية، وتحمل رواية استطعت أن أستطلع عنوانها المرقوم بخط أحمر واضح "الشيخ والبحر"، كانت إحدى أشهر روايات إرنست همنغواي، ربما كانت السبب في حصوله على جائزة نوبل، كنت قد قرأت نسختها الانجليزية قبل سنوات، الأمر الذي شجعني على فتح حوار راهنت أنه سينجح:

- اقتنيها، لن تندمي..

نظرت إليَّ نظرة خاطفة دون أن تنبس بكلمة واستمرت في تقليب صفحات الرواية، فكرتُ في التراجع لكن صرامة نظرتها وشكلها الجذاب شجعاني على محاولة ثانية.

- الإنسان يموت، هذا أمر واقع لا مفر منه، لكن الإنسان لا يجب أن ينهزم، يجب أن يقاوم ما دام قادرا على التنفس، لا بأس أن يفشل مرة ومرة ومرة لكن الأهم ألا يستسلم... هذا ما ستُعلمك إياه الرواية.

هذه المرة أغلقت الرواية، لم تعدها للدرج، ظلت ماسكة إياها في يدها اليسرى، تطلعت إلي بابتسامة أخفت صرامة نظرتها الأولى:

- واضح أنك تعرف الكثير عن هذه الرواية.

- كانت ضمن مقرر الجامعة، هذا كل ما في الأمر. همنغواي وإن كان عبقريا إلا أنه يُشعر قراؤه بالملل، انشغل هو بالأدب الهادف، ولم ينتبه لجزئية التشويق.

- واضح أيضا أنك تعرف الكثير عن هذا الكاتب.

- أنا إسلام، إسلام مغناوي

هكذا قلت وأنا أمد يدي لمصافحتها..

- وأنا سلوى

- إذن ماذا قررت؟ ستقتنين الرواية أم أن خوفك من ملل تفاصيلها سيمنعك؟

- ألم تقل "اقتنيها ولن تندمي"؟ إذن سأقتنيها.

- هل لي إذن أن أكن أول من يخدش عذرية روايتك؟

ضحكتها وهي تمد لي الرواية أشعلت بداخلي نارا لم يكن لأحد القدرة على إشعالها إلا شقيقتها، أمسكت الرواية، خطوت خطوتين نحو الدُرج الخاص بالأقلام ، أخذت قلم رصاص، قصدت الصفحة الأخيرة من الرواية، دونت رقم هاتفي أعلاها، وأسفلها كتبت: "إذا أعجبتك الرواية يسرني أن أسمع كلمة شكرا، وإذا لم تعجبك يسرني أن تطالبيني بالاعتذار. أنتظر"...

انتظرتها لأسبوعين، لا أعتقد أنها استغرقت كل هذه المدة لتقرأ الرواية، ربما ترددت في الاتصال، لكنها اتصلت:

- ألو السلام عليكم..

- أدين لك باعتذار..

تضحك..

- ماذا لو كان اعتذارا وجها لوجه؟

- طبعا فالاعتذار عبر هذه السماعة لا يكفيني.

- ماذا عن الأربعاء صباحا؟

- صباحا؟

- العاشرة صباحا، مقهى "فلوريا".. سنفطر معا..

هكذا كانت البداية، وصرنا بعدها نلتقي كل أربعاء بنفس التوقيت لكن ليس بنفس المكان، كنا نغير المقهى عند كل مرة إلى أن وجدنا أنفسنا ذات صبح نُفطر بمنزلي. كانت تتوسد صدري، ممسكة هاتفها وتعرض لي صورها وصور صديقاتها و أفراد عائلتها إلى أن وجدتها تعرض لي صورة هاجر، خطفت الهاتف من بين يديها محملقا في الصورة جيدا، إنها هي.

- من هذه؟

نظرت إلي باستغراب..

- لماذا؟ هل تعرفها؟

- فقط أجيبيني..

- إنها شقيقتي هاجر.

وكأن دواراً أصابني، تلعثمت، كنت على وشك أن أخبرها بحقيقة الأمر لكني تراجعت وتظاهرت بالتحقق من الصورة، ابتسمت وقلت بنبرة باردة:

- إنها ليست هي، اعتقدت أنها حبيبة أخي، تشبهها قليلا إلا أن الأخرى اسمها نرجس وبشعر متموج.

- تبا لك، أخفتني، اعتقدت أنك تعرف شقيقتي.

- جميلة هي شقيقتك.

- اصمت أيها الأحمق، لا أحب أن تتحدث عن شقيقتي بسوء. أتعرف رغم أنها شقيقتي الوحيدة وأحبها جدا إلا أن علاقتي بها سيئة جدا، لا أكلمها إلا عند الضرورة، لا أعرف عن حياتها إلا القليل، وهي كذلك لا تعرف عني إلا بعض الجزئيات القليلة، نشأنا بطريقة خاطئة.

بقدر ما جعلني هذا الكلام أشعر بالارتياح بقدر ما حزنت لواقعهما.

- لا تزعجي نفسك حبيبتي، ستتصلح الأمور بالمستقبل أكيد، ستنضجان قريبا.

- أحبك إسلام، عدني أن نبقى معا للأبد.

- كيف لي أن أترك من بدأت حياتي معها بالاعتذار.

تطورت علاقتنا بشكل سريع وصرت غير قادر على الانسحاب من حياتها، إلى أن وجدتني في هذا الموقف وسط شقة أكرم حيث سلوى تتطلع بي في صدمة، وشقيقتها على وشك ولوج الباب. لم يكن لدي وقت للتفكير فيما يحدث وفي ما يجب أن أفعله، هل أنتبه لصدمة

سلوى أم أراقب أكرم الذي ينظر إلي بتهكم المنتصر أم أن أعود أدراجي منسحبا في هدوء؟

تذكرت حينها أني طلبت من هاجر أن تتأخر عن الموعد بعشر دقائق تفاديا لمكيدة قد ينصبها لنا أكرم بعد اكتشافي لأمر دعوته لي ولها لنفس الموعد، لذلك فكرت في استغلال تلك العشر دقائق.

تظاهرت بأنه لا شيء يحدث، عانقت أكرم، وصافحت سلوى ثم استأذنتهما في دقيقة أدخل خلالها الحمام. هناك رقنت رسالة نصية سريعة :" لا تحضري، أشرح لك لاحقا "، وبعدما تأكدت أن الرسالة استُلِمت، أغلقت هاتفي، أعدته لجيبي والتحقت بهما.

- إذن صديقي ما السر وراء هذا اللقاء الجميل؟

- سأخبرك بكل شيء ولكن يجب أن ننتظر طرفا رابعا.

حينها انفجرت سلوى:

- أيمكن أن تشرحا لي ما يحدث هنا، وكيف تعرفان بعضكما، ومن ننتظر؟

استغربتُ أنه لم يخبرها شيئا عني، لكني وجدتها فرصة لأقذف ببعض الكرات في الملعب:

- ألم تخبرها أننا صديقان لعشر سنوات؟ اعتقدت أنك لا تخفي عنها شيئا، وماذا عنك أنت سلوى، هل أخبرته أننا حبيبان؟ لا حاجة لقول ذلك فهو يعلم كل شيء وإلا لما كنت أنت في حياته أصلا.

كان ينظر إلي في انزعاج شديد، لكنه لم ينبس بحرف، اعتقد أن نظراته ستكفي لأتوقف عن الحديث، أو ربما كان متأكدا أن مخططه سينجح بمجرد ما يصل الطرف الرابع، أما سلوى فكانت ملامحها تقول أنها لا تستوعب شيئا مما تسمع. اعتقدت أنه شرح لها كل شيء عندما رأيتهما معا بمقهى الساعة، لكن واضح أنه أخَّر كل شيء لهذا اليوم..

- سلوى، لقد صدقتك وأنت تطلبين مني أن أعدك بالبقاء معا للأبد، أما أنت يا صديقي، فسنلتقي قريبا...

قلت هذا وأنا أغادر باب الشقة قبل أن تلحق بي سلوى عند باب المبنى. استوقفتني هناك، أمسكت ذراعي بما يوحي أنها منزعجة جدا، كانت ملامحها ونبرة صوتها تقول ذلك أيضا:

- ستشرح لي الآن كل شيء.

- هنا؟

- لا يهمني، أريد أن أفهم فقط.

كنت مضطرا لأخبرها بكل التفاصيل التي تخصها، آن الوقت لأنهي كل شيء لذلك سحبتها إلى أقرب مقهى بالمكان:

- أنا من يحتاج ليفهم أولا، لماذا هو وليس أنا؟

- وعدني بالزواج.

- واضح أن رواية "الشيخ والبحر" لم تعلمك شيئا يا سلوى. أهذه أنت؟ هكذا هو سقف أحلامك؟ زوج؟

- لا تنس يا إسلام أني أنثى، أعيش وسط مجتمع شرقي يختزل شرفنا في غشاء، ويختزل قيمتنا في مطبخ وسرير.

- واضح انك تؤمنين بهذا أيضا.

لا أدري لما أحسست بخيبة أمل عميقة وكأني وقعت ضحية خديعة، فسلوى التي كانت تحدثني حينها ليست هي نفسها تلك التي صادفتها بالمكتبة أول مرة، رغبتها في "الظفر" بزوج أزعجتني، فوجدتني أسرد عليها، بنوع من التشفي أو الانتقام غير المفهوم، حقيقة ما حدث منذ أن طلب مني أكرم الإيقاع بحبيبته إلى لحظتنا تلك، إلا أني لم أخبرها قط أن حبيبته هي شقيقتها هاجر.

- أراد أن يثأر لنفسه مني عبرك أنت، هذا هو أكرم.

- شمايت، جميعكم.

غادرت، هذه المرة كنت متأكدا أنها غادرت للأبد، ستبتعد ولا أعتقد أنها سوف تفكر حتى في الثأر لنفسها لأن أنثى مثلها سيظل همها المقدس هو الظفر بزوج، تخاف أن تلج الحياة، ترى أن الولوج إليها يحتاج لزوج قادر على السير بها نحو بر الأمان دون أن تتعرض ولو لخدش بسيط. توقعت أنها ستفشل، قد تنجح فقط إذا ما تعرضت لصدمة أقوى.

بعد أن غادرت سلوى، اتصلت بهاجر، كانت السابعة مساء، سألتها عن إمكانية رؤيتها لكنها رفضت بدعوى أنها عادت للمنزل ولا يمكنها مغادرته ثانية في ذلك الوقت، لذلك فكرت في أن أعود أيضا للمنزل، غير أني بمجرد ما غادرت المقهى وجدت قدمي تسحبني نحو شقة أكرم، لا أدري لما اجتاحتني رغبة قوية في زيارته بعد كل الذي حدث.

- لماذا عدت؟

- صدقني لا أكرهك..

- لكني أفعل.

- آسف.

اعتذرت وفقط، لا أعلم لماذا فعلت ولكني اعتقدت أن ذلك قد ينهي هذا العبث الذي وصلنا إليه، كان صديقي لعشر سنوات فكيف لكل شيء أن ينتهي بسبب قصة حب وقصة خيانة، لم أقصد أن نصل

لكل هذا، لم اقصد أن أقع في حب تمرد حبيبته، لم أقصد أن أصدقها وهي تحدثني عن الخيانة من أجل الحب...

- تأخرت كثيرا، الاعتذار مجرد تحريك للشفاه يا صديقي، أما الخيانة ففعل مع سبق الإصرار.

- آذيتني أيضا.

- لا تقل لي أنك كنت تحب سلوى، طبعا لم تفعل، لا قدرة لك على الحب يا صديقي.

- حكم ظالم هذا.

- لم تنس ولن تنسى من كسرت قلبك، لم تنس من اختارت غيرك وفضلت آخر عنك، إنك مريض بها يا إسلام.

وجدتني الكمه بقوة، كانت المرة الأولى التي ألكم فيها شخصا، لم أصدق أني فعلت ذلك، قام مسرعا شتمني وقام بلكمي أيضا، فدفعته بكلتا يداي، أوقعته، ثم صرنا نتعاجن على الأرض. أحسست أنه كان يتجنب ضربي بقوة، حاولت أيضا ألا أؤذيه، تعاركنا لدقيقتين أو ثلاثة... قمنا منهكين. طردني من شقته بكلمات نابية، أسمعته كلمات مشابهة وغادرت.

وصلت إلى المنزل بآلام في الوجه وبجسد منهار تماما، تطلعت بالمرآة بصعوبة، كانت أثار لكماته بادية. فجأة وجدت دموعي تنهمر، ألقيت

بجسدي على الأرض قبالة المرآة، أراقب دموعي التي تهوي ثقيلة فوق خداي، أحاول أن أجد جوابا لها.. هل أبكي بسبب ما أوصلت إليه نفسي، أم أبكي رحيلها؟ هل أبكي لأنه ذكرني بها، تلك التي أوصلتني إلى كل هذا العبث؟

رحلت قبل ذلك بثلاث سنوات، وكنا قد قضينا معا أربع سنوات أخرى، إيمان. عندما قابلتها لأول مرة كانت في الثامنة عشرة، وعندما تزوجت ذاك الآخر كانت في الثالثة بعد العشرين، وبينهما أربع سنوات من الحب، أربع سنوات من الجنون، أربع سنوات من الوعود...

كنت قد وهبتها نفسي، قاسماً أن حياتي بعدها ستكون كالموت، أقسمت هي أيضا أنه لا حياة لها دوني. ثم فجأةً تزوجته وصرت أنا كالغريب وسط ذاتي. في البداية صرت تائها بين الحانات وقاعات الرقص، ثم تحولت لتائه بين الأجساد. قابلت كثيرات، وارتكبت الكثير من الخطايا لكني لم أتوقع في يوم أن أؤذي أكرم الذي ظل بجانبي حتى في أحلك الظروف، ساعدني كثيرا، وأعادني لرشدي في الكثير من المرات.

هل أصبحت سيئا؟ هل فعل بي رحيلها كل ذلك؟

لم أجد الجواب وأنا أنظر للمرآة، أخذت حماما باردا فبدت الكدمات أكثر وضوحا وأكثر زرقة ما كان يعني أني لن أستطيع مغادرة المنزل

لبضعة أيام، لذلك لم أجد من بد إلا الاتصال بهاجر لتلقاني بالمنزل، كنت احتاج بشدة لمحادثتها.

أخبرتني أنه ليس لها القدرة على أن تحضر في اليوم الموالي لذلك كنت ملزما بمغادرة المنزل لأحضر ما آكله، يكفي أني نمت دون أن آكل أي شيء بالأمس. اعتمرت قبعة ونظارة شمس محاولاً أن أخفي الكدمات عن أهل الحي الذين ستلاحقني أسئلتهم إن هم فطنوا للحالة المزرية التي يوجد عليها وجهي، إلا أن محاولتي في إخفاء الأمر باءت بالفشل و أنا أطلب وجبة سريعة من صاحب مطعم صغير في الشارع المقابل للحي.

- ماذا حدث لوجهك؟

- وقعت من فوق دراجتي بالأمس.

- إنك تكذب، ألم تقل أنك تخلصت من دراجتك قبل شهر؟ واضح أن أحدهم حطم وجهك.

قال ذلك وهو يضحك عاليا، حاولت أن أمسك نفسي لكني وجدتني أنفجر ضاحكا أيضا، كان يعرفني جيدا فقد كنت زبونا مواظبا على وجباته السريعة الشهية، كان يُتقن جدا تحضير البطاطس المقلية لذلك اعتدت،في أثناء انتظار تحضيرها، أن أفتح معه حوارات طويلة أحيانا وقصيرة في أحايين أخرى... كان هشام في بداية الثلاثين، خريج كلية الآداب، قسم حضارة وتاريخ، لم يستطع أن يحصل على وظيفة

في القطاع العام، حاول لأربع سنوات لكنه فشل لذلك تدبر أمر مبلغ مالي من والده وأنشأ لنفسه هذا المطعم الصغير الذي يقول أنه مقتنع بما يذره عليه يوميا.

- كان عراكا بسيطا، لا تهتم.

- أكان من أجل فتاة؟ إن كان كذلك فهو يستحق.

- لا، كان من أجل مباراة الكلاسيكو الاسباني.

- مغفل، أعرف أنك تكذب. لا يهم دعنا من أمر عراكك، لدي ما أكلمك عنه.

- حسنا، كلي آذان صاغية أيها الطباخ المؤرخ.

- قررت أني "نكمل ديني".

- أوووووووه.. حقاً؟

- أجل أجل، لذلك أريد أن أستشيرك في أمر.

- أنا آخر من قد يفيدك في هكذا مسألة، الكتاب فاشلون جدا في كل ما يتعلق بالنساء.

- لا بالعكس، أنت الوحيد الذي بمقدوره مساعدتي لأنك تعرف العروس جيدا.

- أعرف العروس؟؟

- قبل شهرين، حضرت إلى هنا رفقتها، أتذكر أني عندما سألتك عنها أخبرتني أنها صديقتك، أتذكر أيضا أنك رفضت إخباري اسمها لحظة أبديت لك إعجابي بها، بعدها بأسبوعين عادت إلى هنا، قالت أن لذة البطاطس المقلية هي ما قادتها إلى مطعمي مرة أخرى، حينها استطعت أن أحصل على رقم هاتفها، ووافقتْ لاحقا على قبول دعوتي للخروج معا. كنت أريد أن أخبرك بهذا قبل اليوم لكني ترددت، خفت أن تنزعج أو أن تعتقد أني أطعنك من الخلف، إلا أني بعدما سألتها عنك وأكدت لي أنكما مجرد صديقين اطمأنت وها أنا أخبرك الآن.

- أتقصد سلوى؟

- بالضبط، إنها سلوى، ألست منزعجا؟

كنت أعتقد أنها فضلت علي أكرم فقط، واضح أني كنت مخطئا تماما.

- طبعا لا، أحببت هذا جدا، لقد أحسنت الاختيار قطعا.

- حقا؟ هل أتقدم لخطبتها إذن؟

- افعل ذلك، لن تندم، فسلوى بمقدورها أن تسعدك حقا.

لا أعرف لماذا أحسست بارتياح عميق، وكأني تخلصت من حمل ثقيل حملته لأشهر، لا أعلم إن كانت سلوى ثقل، وأني أشعر في عمقي بذنب عظيم ارتكبته في حقها لم أتخلص منه إلا يوم أخبرني هشام بعزمها خطبتها. الأكيد أني سعدت جدا لأنها أخيرا ستظفر بزوج، ذاك الهدف المقدس الذي ستهزم من خلاله مجتمعا بأكمله.

عدت للمنزل سعيدا، نسيت أمر كدماتي، تناولت ما أحضرته، كان شهيا كالعادة لكنه أيضا كان دون طعم ما دمت آكله وحيدا. استلقيت قبالة التلفاز، لم تكن لي رغبة في القراءة ولا الكتابة. قضيت ما تبقى من اليوم متنقلا بين قناة الجزيرة والقنوات الرياضية إلى أن رن هاتفي عند السادسة مساء، كان رقم هاتف سلوى، تفاجأت لاتصالها بعد كل ما حدث.

- هل بإمكاني أن أراك الآن؟

- ضروري؟

لم أكن أريد لها أن ترى الكدمات بوجهي...

- أجل ضروري، أحتاج أن أستشيرك في أمر.

- حسنا أنا بالمنزل ولا أستطيع مغادرته.

- لا بأس، سأحضر إليك.

توقعت أنها تريد أن تسألني عن هشام، لم تمر نصف ساعة حتى وجدتها تطرق الباب، بدت أكثر جاذبية اليوم في بنطلونها الجينز الأسود وكنزتها الذهبية، ربما أراها أكثر جاذبية فقط لأني فقدتها فالأشياء التي نفقدها دائما ما تصبح أكثر قيمة في نظرنا، أكثر لمعانا.

- ماذا حدث لوجهك؟

- انسي أمر وجهي، بماذا أساعدك؟

- مرتبطة غدا بموعد سفر رفقة أمي، سيدوم لأسبوعين، لذلك كان من الضروري أن أحدثك اليوم في أمر مهم.

- حسنا تفضلي.

- ما رأيك في هشام، صاحب المطعم؟

- أفضل حالا مني أكيد.

- يناسبني كزوج؟

- تناسبينه كزوجة.

- آسفة إسلام..

- لا تتأسفي، لم تخطئي..

- بلى أخطأت، أنت شخص حساس رغم زلاتك.

كانت تتحدث هذه المرة بهدوء غريب، ملامحها بدت أكثر جاذبية، بدت أيضا عاطفية أكثر من أي وقت قابلتها فيه، كان الأمر يخرج عن السيطرة...

- هل لي بعناق وداع؟

ما كان لي أن أرفض عناق أنثى، وما كان لي أن أسيطر على العناق، خطيئة أخيرة...

انتابني إحساس بانزعاج شديد بعد مغادرتها، وأنا أتطلع بالمرآة وجدتني دنيئا، احتقرت نفسي جدا لحظتها. كيف وصلت إلى هنا؟ ما ذنب كل هؤلاء؟ ما ذنب أكرم وهشام وسلوى وهاجر؟ ضجرتني جدا حينها، لذلك كنت ملزما بمغادرة المنزل. انتظرت إلى أن عم الظلام وخرجت قاصدا لامكان، كنت احتاج للمشي، كنت أحتاج لأنجو من إحساسي بالاختناق جراء كل تلك التراكمات التي قدت إليها نفسي، أمشي في اللاتجاه وسط شارع فارغ إلا من سيارات جذابة مركونة أمام أبواب الحانات، لعل أصحابها بالداخل يتجرعون كؤوس الألم مثلي تماما. للحظة فكرت في أن أقتحم إحدى تلك الحانات لأصرخ بصوت عالي في وجوه الموجودين: "لستم أكثر مني بؤسا أيها المغفلون". ألغيت الفكرة، ثم فكرت في أن ألج لأشرب من نفس كأسهم، كأس الغفلة، ألغيت الفكرة أيضا واكتفيت بالمشي.

ليل فاس صامت وأحيانا سيء، له القدرة على أن يضاعف بؤسك إن كنت غير متعود عليه، أما أنا فصرت أجد راحتي في صمته بعدما كنت لا أحبه إلا وهو صاخب... رحيل إيمان عن المدينة أحدث انقلابا بحياتي، فأصبح الصخب يزعجني، و أصبحت زحمة الناس تزعجني، وأصبح السير ليلا وحيدا ولساعات يساعدني على ترتيب فوضى حياتي، تلك الفوضى التي تركتها بعد رحيلها متعللة بالقدر وإرادة الحياة.

نظلم كثيرا القدر ونظلم الحياة، ما ذنبهما في هزائمنا، ما ذنبهما في خذلاننا للآخرين...؟

أكملت سيري دون أن أعي أني وصلت لمطعم هشام، كان قد اعتاد على ألا ينهي العمل قبل الواحدة صباحا، يقول أن زبناء الليل أكثر كرما من أولئك الذين يأتون نهارا، فأغلبهم يغادرون الحانات بمعدة فارغة وعقل غائب لذلك لا ينتبهون إلى ما ينفقون.

- ما الذي يبقيك مستيقظا لحد الآن يا صديقي؟

- آسف هشام.

- آسف على ماذا؟ ماذا فعلت؟

- لا شيء، لاشيء، تجاهل الأمر.

- هل كنت بالحانة؟

- قطعا لا، تائه فقط .

- ما سبب تيهك؟

- ربما الجوع، هل من شيء لآكله؟

- تأخرت جدا، تبقت بعض البطاطس وبعض شرائح الصوصيص الذي لا تحب.

- لا بأس به، أعده لي فللجوع أحكام، قل لي ماذا فعلت في أمر زواجك بسلوى؟

لمعت عيناه، ابتسم بصدق وترك شرائح الصوصيص جانبا، بدا في صورة طفل صغير غلبته براءته.

- سأقصد منزل أسرتها لخطبتها بعد أن تعود من السفر، بعد أسبوعين، اتفقنا على كل التفاصيل.

- متشوق أنت.

- صدقني إسلام، متشوق جدا ليس فقط لحاجتي للاستقرار ولكن أيضا لأنها سلوى.

- تحبها هشام؟

اعتقدت أنه سيتجنب الإجابة بطريقة مباشرة كعادة الرجال في الشرق الذين يخافون الاعتراف بالحب، وكأن الحب ضعف أو خطيئة.

- أحبها جدا، أحبها لدرجة أني ما عدت أعرفني لحظة ألتقيها.

أسعدني جوابه، أحزنني جوابه... سعدت لأن سلوى وجدت أخيرا من يحبها بصدق، وحزنت لأنها لا تستحق شخصا طاهرا كهشام.

التهمت بسرعة وبانتشاء شرائح الصوصيص وقطع البطاطس، شكرته، تمنيت له حظا موفقا وزواجا سعيدا وعدت للمنزل، كنت مرهقا جراء المشي، نمت مباشرة ولم أستيقظ إلا على طرق بالباب.

فتحت عيني بصعوبة، تطلعت بالساعة على الجدار الأيمن من غرفتي، كانت الحادية عشرة صباحا، بالكاد قمت من السرير، سرت بخطوات متثاقلة وبتثاؤب مستمر نحو الباب.

- هذه أنت، أغلقي الباب من خلفك.

كانت هاجر، لم يكن تواجدها بالمنزل أمرا جديدا لذلك عدت بنفس الخطوات المتثاقلة ونفس التثاؤب نحو سريري، لحقت بي.

- ألم ترغب في مجيئي؟

- اعتقدت أنك ستحضرين زوالا.

- وجدت أن هذا التوقيت أنسب.

- متعب، دعيني أنام قليلا.

- أخبرني ما به وجهك؟

- سأخبرك عندما أستيقظ.

- حسنا، أنا بالمطبخ إذا احتجتني لكني لا أستطيع البقاء لأكثر من ساعتين.

بعد نصف ساعة عادت لتوقظني مرة أخرى، لم أكن قد نمت بعد بسبب صخب الموسيقى المنبعث من هاتفها.

- استيقظ يا خائني الجميل، لقد أعددت لك بيضتان مقليتان وفنجان نسكافيه، لم أجد في ثلاجتك غير ذلك.

- لا أريد شيئا، دعيني أنام فقط.

- قل لي ما به وجهك؟

- حطمه حبيبك.

تضحك ببراءة، لا أدري إن كانت بريئة حقا أم أنها تشبهني...

- أخبرني ماذا حدث؟

سردت لها حكاية مرتجلة، مزجت فيها الحقيقة بالمتخيل كوني لم أكن قادرا على البوح لها بقصتي مع إيمان، لم أشأ أن أظهر في صورة المخدوع المنهزم المنكسر أمامها، قد تعتبر بوحي نوعا من الضعف الذي لا يمكن لأنثى مثقفة ألا تستغله لصالحها.

- هذا كل ما حدث.

- اشتقتك..

قالت ذلك وهي تدنو بكرسيها مني على مائدة الإفطار، كنت أفهم طبيعتها ورغباتها جيدا إلا أني لحظتها لم تكن لي رغبة في شيء، فعدت بالكرسي للخلف وقمت في اتجاه الحمام لأغسل يداي، كانت تفهم طبيعتي أيضا لذلك قامت، ارتدت جاكيطها الجلدي الأسود ولحقت بي إلى المطبخ، لفت ذراعيها حول خصري من الخلف وطبعت قبلة طويلة على عنقي وانسحبت.

- سأعود غدا، سأخبرك قبل أن أحضر.

لم تمض على مغادرتها إلا ساعتين حتى وصلتني رسالة قصيرة منها، اعتقدت أنها رسالة اشتياق وتمرد..

كانت رسالة من كلمتين: "شقيقتي ماتت".

قرأت الرسالة عشرات المرات وتأكدت من رقم المرسل عشرات المرات، إنه رقمها، إنها هي..

هل حقا ماتت سلوى؟ كيف؟ لماذا؟

هل انتهى دور سلوى في الحياة بهذه السرعة؟ لكنها لم تتزوج بعد، كيف لها أن تموت قبل أن تطال حلمها المقدس؟ كان حلمها على بعد سفر، فكيف للقدر ألا ينتظرها أسبوعين فقط؟ أليس لقانون الحياة روح؟

ماذا أفعل بهدية زفافك يا سلوى؟ تلك الروايات التي اقتنيتها من أجلك لتؤنس وحدتك عندما يغادرك هشام إلى مطعمه؟ هل أحرقها أم أمنحها لهشام أم أهديها لشقيقتك؟ شقيقتك يا سلوى تخبرني نبأ موتك فهل أخبرها نبأ خطبتك بعد أسبوعين؟ كيف ترحلين قبل أن أعتذر لك عما فعلناه بك.. شقيقتك وأنا.

اجتاحتني عشرات الأسئلة الموجعة وأنا أعيد قراءة رسالة الموت تلك، انتابني شعور بالوهن وأن نهايتنا أمر حتمي مهما طالت مقاومتنا، لا بد أن يحضر اليوم الذي نخسر فيه معركة البقاء.

قاومت الأسئلة و هدأت نفسي، حاولت بعدها أن أتصل بهاجر، لكن هاتفها كان خارج الخدمة، حاولت لساعتين دون جدوى لذلك قصدت مطعم هشام لعله يشبع فضولي عن كيفية موتها. كان سؤال "كيف ماتت؟" أكثر الأسئلة التي شغلتني يومها، وهي التي لم تعاني مرضا على حد علمي، كان مطعم هشام مغلقا، توقعت أنه علم بالأمر

واتجه لبيتها ليستطلع الحقيقة لذلك فكرت أنا أيضا في الاقتراب من منزلها لعلي أفهم شيئا مما يحدث.

في طريقي إلى هناك صادفت أكرم، ما كان له أن يخفي تلك الحمرة بعينيه، كان يبكي أما زرقة الكدمات فقد اختفت. لم أكن أعلم كيف يجب أن أتصرف معه، هل أمر عابرا أم أستوقفه؟ لم يتركني لأجد جوابا لحظة ارتمى بجسده علي معانقا إياي بغرابة، ربما بحزن، ربما بتحسر، ربما بندم... أحسست أن عناقه ذاك يحمل كل تلك المعاني، لم أقاوم نفسي وعانقته بشدة، كان عناقي بمعنى واحد أني غفرت له كل شيء...

- ماتت سلوى يا صديقي..

تظاهرت بالصدمة والدهشة، أو حاولت أن توحي ملامحي بذلك حتى أتجنب سؤال "كيف عرفت؟"

- ماذا تقول؟ متى ؟كيف؟أين؟

- هل لك أن ترافقني للبيت، سأخبرك بكل شيء.

- بل رافقني أنت، واضح أنك متعب جدا.

كان منزلي لا يبعد عن المكان إلا شارعا واحدا، لم نتكلم طوال الطريق، فضلت أن أحترم رغبته في الصمت.. في وسط هذا الصمت قفزت لمخيلتي فكرة أنه قد يكون علم بأمر أخوة سلوى وحبيبته

هاجر ما دمت قد قابلته قادما من منزلهما، أخافتني الفكرة لأنه قد يعتقد أني دبرت أمر الإيقاع بالشقيقتين فيخبر هاجر بالأمر، لأصير في نظرها ملعوناً.

- هل حقا ماتت سلوى؟

- ماتت عند التاسعة من صباح اليوم.

- لكن كيف؟ لا أعتقد أنها كانت تعاني مرضا؟

- كانت حادثة سير، كانت مسافرة على متن حافلة.

تذكرت حينها أنها كانت على موعد سفر رفقة أمها، هل هذا يعني أن أمها ماتت أيضا؟ لا أعتقد وإلا لكانت هاجر قد أخبرتني بالأمر.

- أكانت لوحدها؟

- لا كانت رفقة أمها، لكنها نجت، تعرضت لبعض الكسور فقط..

- كيف عرفت بالأمر؟

- مجرد صدفة، أحد ركاب الحافلة استعمل هاتف سلوى واتصل بأول رقم في مفكرة الهاتف، كان رقمي.. هو من أخبرني بالأمر، وأخبرني أيضا أنه يتم نقل الجميع لمستشفى الحسن الثاني، فتوجهت إلى هناك بسرعة.

أمازالت سلوى تحتفظ برقم هاتفه؟ لماذا؟ هذا ما وجدتني أفكر به، استيقظ يا أنا لقد ماتت سلوى..

- رأيتها بالمستشفى؟

- لا لم يسمحوا لي، أرشدوني فقط لرؤية أمها ولكني لم أستطع أن أقابلها لأني لم أجد طريقة أقدم بها لها نفسي، اكتفيت بإلقاء نظرة عليها من خلف الستار ثم غادرت.

انتابني إحساس بالارتياح لأنه لم يعلم بالعلاقة التي تربط سلوى بهاجر دون أن ينجلي إحساسي بالحزن على رحيل سلوى الأبدي.

بعدما غادر أكرم منزلي، عاودت الاتصال بهاجر، كان هاتفها يرن وبالفعل ردت. كان صوتها منهارا، حدثتني عما حدث دون قدرة على أن تمنع نفسها من النحيب. لامت نفسها عن اللحظات التي لم تعشها رفقتها، لامت نفسها على القطيعة بينهما.

- ماتت دون أن أخبرها بحبي يا إسلام، ماتت دون أن تمنحني الفرصة لانهزم أمامها وأعترف لها بحقيقة أنها جزء مني، ماتت يا إسلام، إنها لا تعلم أني كنت أنتظر عودتها من السفر لأهديها فستاني الأصفر الذي لطالما أحبته،لا بأس سأضعه في خزانتها، ستراه أليس كذلك يا إسلام.. قل لي أنها ستراه، قل لي أنها ستسامحني، قل لي أنها تسمعني الآن..

- إنها تسمعك هاجر.

- حقا؟ إذن دعني أقسم لها بحبي، أقسم بالله أني أحبك سلوى، أقسم بالله أني لم أكرهك يوما، أقسم بالله أني لم أقصد أن أقسو عليك يوما، إنك شقيقتي أيتها البلهاء كيف لا أحبك..

بدأت تنهار أكثر، ثم للحظة لم تعد قادرة على الكلام، أدركت أني ملزم بقطع الاتصال لأنها بحكيها تتذكر تفاصيلا قاسية ليست بقدرة على مواجهتها، ربما كانت تحتاج لرفقتي لحظتها أكثر من أي وقت مضى غير أنه ما كان يناسبني أن أطلب منها ملاقاتي في تلك الظروف. كان لابد لي أن أختفي لبضعة أيام، فأنا نفسي كنت أحتاج لأتطهر من كل ذلك.

أغلقت هاتفي لعشرة أيام، انزويت فيها بعيدا عن الحي بل بعيدا عن المدينة بأكملها، اخترت أن أقضيها رفقة صديق طفولتي بمدينته، طنجة. هناك اختار القدر أن يلاعبني بطريقة أخرى.

طنجة بدت كما تركتها قبل سنوات، حين كنت طالبا سيئا بإحدى مدارسها العليا، مدرسة الملك فهد للترجمة، قبل أن يقذفوا بي مطرودا أنا وزميلتي تلك بتهمة تدنيس مكان مقدس، كانت لحظة انزلاق سبَّبها نسيم دافئ يبعثه الشاطئ الذي تطل عليه المدرسة، كان نسيما يصعب مقاومته أو لعلي الوحيد الذي لم أستطع مقاومته أنا القادم من مدينة تعيس جوها، زميلتي أيضا لم تستطع مقاومته وهي الوافدة من مدينة باردة. انسحبت بهدوء من حصة الأستاذة جانيت، تلك الأستاذة الأمريكية التي لم أحب، وما هي إلا دقيقتين وانسحبت زميلتي من بعدي، لحقت بي إلى الطابق تحت الأرضي حيث يوجد المقصف، وعلى يسار المقصف يوجد سلم إسمنتي يمتد إلى ملعب الرياضة، وتحت السلم هناك مساحة فارغة كانت كافية لاحتوائي أنا وزميلتي قبل أن نتفاجأ بمدير المدرسة يصرخ في وجهينا...

طنجة مدينة فاقدة لهويتها، مدينة ترتدي زيا لا يشبهها، شوارع أنيقة وأزقة على نموذج المدن الأنجلوساكسونية، ولكن بأناس غرباء. محقٌ أنت يا بول بولز في حبك لطنجة وكرهك لسكانها..

ما عدت أملك تلك القدرة على التجوال بين أزقتها ومزاحمة أجساد قاطنيها، وحده ساحلها ما يبعث في بعض الأمل، ولست هناك إلا بسبب ذلك الساحل الذي قصدته بمجرد ما حط بي القطار عند الثالثة زوالا، في انتظار أن ألتحق بصديق طفولتي الذي لا يغادر العمل قبل السادسة.

كان سفيان يشتغل طبيبا نفسيا للأطفال والمراهقين بمصحته الخاصة، كان ذاك حلم طفولته الذي استطاع أن يبلغه. كان لي أيضا حلم طفولة، كنت أحلم بأن أصير رساما ربما لأن أخي الوحيد كان يجيد الرسم، لكني تخليت عن حلمي ذاك بعدما فشلت في رسم رأس هر طلب مني الأستاذ أن أرسمه فرسمته شقيقتي الوسطى بدلا عني، شقيقتي لم تكن فنانة تشكيلية لكنها كانت تصنع أطباقا شهية.

عندما بلغتُ السادسة عشرة صار حلمي غريبا، أن أتزوج فتاة جذابة وأتخلى عنها ليلة زفافنا لعلي أفهم كيف يكون إحساس الرجل وهو يهين امرأة اختارته، كنت فقط أريد أن أفهم كيف يحس والدي وهو يقوم باهانة أمي كل يوم.. فشلت في أن أكون كأبي، ثم قررت ألا أحلم مرة أخرى.

في انتظار سفيان، أخذت مكانا على شاطئ المدينة أنظر للأمواج التي تتكسر، محاولا استرجاع الأشياء التي تكسرت في حياتي، كان قلبي أكثر هذه الأشياء قيمة، وجدتني أتذكر بمرارة تفاصيل حياتي وكيف وصلت إلى هناك فارغ الذات. اغرورقت عيناي بالدمع حتى تعذرت علي الرؤية لكنه لم يكن مسموحا لي بترك دموعي تغادر عيني، هكذا وعدتها يوم زفافها عندما اختارت أن تتصل بي قبيل ثواني من مراسيم عرسها لأقول أني غفرت لها..

- سامحني أرجوك..

- كوني سعيدة فقط..

- كن قويا، أرجوك لا تسمح لدموعك أن تغادر عينيك الجميلتين.

ثم لم أبك بعد ذلك... ضغطت على عيناي بقوة حتى اتضحت لي الرؤية واختفت الدموع.

- ما يحزنك يا بني؟

هكذا فاجأني سؤال رجل ستيني يجلس على يميني، لم أنتبه إلى وجوده قبل أن ينطق، أدرت وجهي نحوه بلباقة.

- لا شيء، بعض التعب فقط.

- أتعبتك الحياة؟

وكأن عيناي اغرورقت من جديد، وصار صوتي متحجرشا:

- أتعبني الناس..

- ألست أصغر من أن يُتعبك الناس يا بني؟

- أحس أني وصلت إلى نهايتي..

- أتستطيع أن تخبرني ما بك؟

- تراكمات كثيرة تغرقني...

- لن أطلب منك أن تخبرني إياها لكني سأطلب منك أن تعيش عمرك يا بني، انظر إلي، دنوت من السبعين وعندما أتذكر ما مررت به من مآسي أضحك، صارت ماضيا، كذلك هي أحزانك ستصبح غدا مجرد حكاية عابرة وسط حكايات عابرة أخرى... ابتسم، قم واحلق لحيتك تلك فهي لا تناسب وسامة ملامحك، عانق الحياة يا بني قبل فوات الأوان.

غادرت مكاني في الحين، خطوت نحوه، انحنيت لأقبل يده لكنه منعني. قال أن الرجال يتعانقون ولا يقبلون الأيادي. عانقته بعطف، كانت رائحته طيبة جدا فتمنيت لو أننا أطلنا العناق.

غادرت منتعشا، كانت الساعة السادسة إلا دقائق عشر، ما يعني أن سفيان سيغادر مصحته بعيد دقائق لذلك يجب أن أقابله كما اتفقنا عند مقهى "هاوس" وسط المدينة التي تبعد عن مصحته مسافة عشرين دقيقة. لم يتأخر، حضر بمرحه المعتاد الذي لم يتخل عنه منذ كنا تلميذين بالمدرسة الابتدائية.

- ما الذي ذكرك بي أيها الشاعر، اعرف أنك لا تحب هذه المدينة، أجئتني لأعالجك؟ أصرت مجنونا أخيراً؟ كنت أعرف أنك ستجن يوما ما ولكن ليس بهذه السرعة.

- واضح أنك تحتاج لعلاج نفسك أولا يا صديقي أما أنا فلم أصل مرحلتك بعد.

هكذا كانت طبيعة حواراتنا كلما التقينا، نادرا ما يتخذ الجِّد مكانه بيننا لذلك أسعى كل ما سمحت لي الحياة إلى زيارته، هو لا يزورني، يقول أنه أيضا لا يحب مدينتي رغم أنه لم يزرها إلا مرتين. في المرة الأولى زار ضريح مولاي إدريس وما يحيط به، وفي المرة الثانية زار منتجع سيدي حرازم.

- فاس مدينة يسكنها فقط "العروبية " (السكان القادمون من القرى)

- فاس ليست هي مولاي إدريس وسيدي حرازم أيها الغبي.

طال الحديث بيننا بالمقهى لساعتين، لم نقل شيئا مهما، تذكرنا لحظات من طفولتنا، تذكرنا بعض أساتذتنا، وتجنبت الحديث عن حاضري، كان ذلك سيقلب نقاشنا إلى جد وليس هذا ما أنا هناك من أجله. غادرنا عند الثامنة والنصف نحو مسكنه لكننا تناولنا قبلها شيئا بمطعم صغير في طريقنا، ذكرني المطعم بهشام... أين هو الآن؟ هل يضم سلوى إلى جسده ليتعطر برائحة موتها وليجعل منه عطره الأبدي؟ أم أنه يجلس عند قبرها يبكي رحيلها الأبدي وينثر على جسده من تراب قبرها لعل بعض التراب يبعث له رائحتها...؟

استغرقت في أفكاري للحظة قبل أن يعيدني صوت سفيان إلى واقعي وهو يهم بفتح باب السيارة أمام أحد المراكز التجارية الكبرى.

- هل تريد الويسكي أم مازلت طاهرا؟

- للأسف مازلت طاهرا، أحضر لي زجاجة كولا..

- تبا لك، صديق سيء أنت.

قال ذلك وهو يغلق باب السيارة من خلفه، كان يخطو مترنحا حتى قبل أن يقتني الويسكي، تتبعت خطواته إلى أن ولج باب المركز التجاري، لكنه لحظة فتح الباب ليلج كانت هي تغادر نفس الباب. لا يمكن لإحساسي أن يخطئها وإن كانت الإضاءة الضعيفة أمام باب المركز لا تسمح لي برؤيتها بوضوح، وجدتني أغادر السيارة متجها نحوها دون إدراك ودون وعي...

- إيمان..!

ظلت تنظر إلي لثواني دون أن تقول شيئا، لمحت حمرة تعلو خديها، حُمرة خجل أو ربما خوف... لا تشبه أبدا تلك الحُمرة التي علت وجهها بكامله لحظة أخبرتها بحقيقة حبي لها، ماذا لو أن حُمرتها هذه الآن هي في الحقيقة سوادٌ حولته الإضاءة الضعيفة إلى حُمرة؟

- أنت؟؟ ماذا تفعل هنا؟

إذن هي حمرة خوف من شيء ما، هذا ما أوحى به سؤالها وقبله نبرة صوتها...

- مجرد صدفة، ولكن ماذا تفعلين أنت هنا؟

- ارحل الآن، زوجي بالداخل قد يخرج في أية لحظة..

أكيد سأرحل، ولكن رحيلي لن يشبه رحيلك، رحيلك كان طعنة قاتلة أما رحيلي فمجرد خطوة وسط جحيم دفعتني لأعيشه... تمنيت لو أني استطعت أن أقول ذلك لكني لم أكن بتلك القدرة.

- حسنا، آسف إيمان.

هممت بالمغادرة إلا أنها استوقفتني..

- إسلام انتظر..

مدت يدها لحقيبتها، سحبت بطاقة ما وقدمتها لي، لم تقل أي شيء، ألقيتُ نظرة خاطفة على البطاقة، أدركت أنها بطاقتها الشخصية التي تحمل رقم هاتفها، لذلك ما كان مسموحا لي بالبقاء واقفا هناك بجانبها، دُست البطاقة في جيب البنطلون وعدت نحو السيارة لأنتظر سفيان الذي حضر كما غادر، مترنحا.

بالمنزل اختار سفيان أن يمزج الويسكي بالثلج على أنغام إحدى معزوفات جاك بريل، يحرك زجاجة الويسكي بيده اليسرى محاولا أن يساير إيقاع الموسيقى، كان يبدو منتشيا بلحظته، لذلك لم أحاول أن أقاطعه، أخرجت بطاقتها من جيب البنطلون، أتأملها بشرود، صارت ناجحة إذن، دراستها الماركتينغ لم تكن تضييعا للوقت، ها هي

قد غدت مديرة للتسويق بالفرع الرئيسي لواحدة من أكبر شركات الاتصالات في المغرب.

- هيهو.. هيهو.. بماذا تفكر؟

هكذا أعادني سفيان من رحلتي إليها، خطف البطاقة من بين يدي وصار يتأملها..

- من هذه؟

- سأجيبك ولكن قبلها دعني أسألك، ما المرحلة التي تلي فشل الحب؟

- أجيبك كصديق أم كطبيب نفسي؟

- أفي الأمر اختلاف؟

أحسست به حينها وكأنه تحول إلى شخص واقعي وناضج جدا لكنه لم يترك كأس الويسكي من يده اليسرى ولا البطاقة من يده اليمنى.

- في علم النفس يا صديقي، بعد أن ينتهي الحب قد تحضر الكراهية أو يحضر الحقد لدى أحد الطرفين، ثم يتحول ذاك الحقد إلى رغبة في الانتقام، هذا الانتقام قد يكون عبر ربط علاقة مع أنثى أخرى أو مع ذكر آخر، هذه العلاقة التي يكون هدفها الانتقام من الطرف الثالث قد تتحول إلى حب... أي أن الانتقام سيكون قد قادنا إلى الحب، والحقيقة أن الحب قادنا إلى الحب. أما وأنا صديقك فأقول

لك أن الحب لا يفشل، الحب أبدي مهما ابتعدنا زمنيا ومكانيا عمن نحب.

- هل من المعقول أنها مازالت تحبني؟

- قد يكون من المعقول، لكنه قد يكون من الخطأ أيضا.

- من الخطأ؟

- اخبرني أولا بطاقة من هذه؟

كنت مضطرا حينها أن أعود بحياتي سنوات للخلف، أخبرت سفيان بكل التفاصيل أو لعلي كنت أخبر طبيبا نفسيا، فداخلي كان يحتاج ليفرغ كل شيء لمن له القدرة على بعث الأمل بي أو جعلي أستيقظ من أوهام عشتها طويلا، اعتقدت أنه قد يكون سفيان ذاك الشخص فلم أخفي عنه شيء حتى زواجي أنا وهي بالدم. كنا حينها نعتقد أنه الزواج الذي سيربطنا معا وللأبد كما نرتبط بأقربائنا، كنا في البداية شابين يحبان بعضهما لدرجة الهوس لذلك أخذت شفرة حلاقة وأحدثت جرحا صغيرا بكفي الأيمن وفعلت نفس الشيء بكفها الأيسر، فامتزج دمي بدمها معتقدين أننا صرنا متزوجين، بعدها أخذتُ منديلا ونظفت جرحها أولا ثم جرحي، طلبت مني أن تحتفظ بالمنديل واحتفظت أنا بشفرة الحلاقة... بعد سنوات قليلة كان الجرح أكثر عمقا، كان جرحا في القلب.

- كل هذا يا صديقي؟ كل هذا مكتوم بقلبك الصغير؟

- أعرفت الآن لماذا أحب جاك بريل؟ إنه يخاطبني أنا.

- الحب لا ينتهي لكن العلاقات تنتهي يا صديقي..

- لم أفهم..

- علاقتكما انتهت، محاولة إحيائها تعذيب للنفس.

- هل ألغي فكرة الاتصال بها؟

- لا بالعكس، اتصل بها، قابلها، حدثها ولكن افعل ذلك دون أن تصحب معك الأمل.

- هل أتصل بها الآن؟

- اترك الأمر للغد..

وجدتني ضعيفا أمام سفيان، أحسسته أستاذي رغم أننا كنا بنفس العمر، بدا هذه المرة ناضجا، ربما كأس الويسكي جعلته يعتقدني أحد مرضاه لكني أحببت أن أكون مريضه تلك الليلة التي استطعت أن أنام نصفها بارتياح تام.

استيقظت متأخرا، كان سفيان قد غادر نحو مصحته، العاشرة صباحا، اعتقدت أنه الوقت المناسب للاتصال بإيمان، لحسن الحظ

أن سفيان كان يتوفر على هاتف ثابت بمنزله حتى لا اضطر لتشغيل هاتفي.

كنت مصرا على أن أبدو متماسكا وأنا اتصل بها، نبرة صوتي يجب أن تبدو عادية لا تحمل إحساسا بالاشتياق ولا بكوني مازلت غير قادر على فعل النسيان.

هي أيضا بدت متماسكة وعادية، ربما هي كذلك في الحقيقة، ربما لم أعد حتى ذاك الجزء من ماضيها، سأتأكد من كل ذلك باليوم الموالي، هكذا اتفقنا على أن نلتقي عند الثانية عشرة زوالا لأنه التوقيت الوحيد الذي يناسبها على ألا تبقى رفقتي لأكثر من ساعة ونصف. لا ادري إن كانت هذه الساعة والنصف أكثر مما توقعت أو أقل، يكفيني أنها تمنحني ساعة ونصف من حياة رجل آخر، رجل اختارته ليكون بديلا عني، لم يكن قط بديلا عن أحاسيسي، كان بديلا عن محفظة جيبي الفارغة، اختارت دفتر شيكاته بدل دفتري الملطخ بقصائد الحب.

لم تتأخر بالغد، كانت تبدو ملامحها صارمة وهي تلج باب مقهى "باريس" البعيدة عن وسط المدينة مسافة نصف ساعة، فهمت أنها اختارتها تجنبا لزوجها.

صافحتني ببرود تام و كأنها تريد أن تخبرني منذ البدء أنه لا أمل في أن أحاول إحياء الذي انتهى، صافحتها بنفس البرود، بالكاد لامست مقدمة كفها وسحبت يدي. ما تزال أناملها ملساء لم يُخضعها جبروت الزمن لتأثيراته، ومازالت خصلات شعرها تلك تتمرد على غطاء رأسها الأرجواني الذي لم يناسب لون السكارف الذي اختارت أن تلفه حول عنقها، لكنه ناسب تنورتها الفضفاضة وحذائها الرياضي. كانت جذابة بطريقة لا تناسب مديرة للتسويق.

- ألم أخبركِ أن القدر أقوى منا؟

- لكنه لن يغير في الأمر شيء، القدر لا يعيدنا للخلف، القدر لا قدرة له على تغيير اختياراتنا.

- تقصدين اختياراتك..

- لكل منا زلاته..

- ماذا تفعلين هنا؟ لماذا طنجة؟

- مازلت لا تحبها؟

- تتذكرين إذن أني لا أحبها، ماذا عنك؟

- صرت أقطنها.

- ماذا عن وعدك أنك لن تصليها ما دمت أنا لا أحبها؟

- لم أنس وعدي، لم يكن اختيارا، كان ضرورة، تقدمي في وظيفتي كان متوقفا على قبولي العيش هنا.

لم أتوقع ردها، إقرارها أنها لم تنس وعدها حمل إلي رغبة في الضعف، في الهزيمة والانكشاف أمامها، رغبة في قول كل شيء عن دنياي منذ أن رحلت، لكن ملامحها الصارمة كانت تمنعني وكانت توحي لي أن إقرارها ذاك مجرد زلة تعثر بها لسانها، أو ربما مجرد إحساس بنوع من الشفقة نحوي... ألم تدري أنها بزلتها أو شفقتها تلك تبعث بي أملا لا يجب أن يُبعث؟ للحظة اعتقدت أني أخطأت بلقائها وأن سفيان أخطأ عندما نصحني بضرورة رؤيتها فهو لن يستوعب عمق ما عنته وتعنيه لي مهما حاولت كلماتي أن تكون مؤثرة لحظة سردي قصتي له، ربما أخطأ ولكنه أنقذني أيضا فقد كنت على وشك أن أنهزم لولا أني تذكرت قوله أن الحب لا ينتهي ولكن العلاقات تنتهي...

- سعيدة؟

- السعادة مفهوم خاطئ، لا يتناسب وطبيعة الإنسان الذي يخضع لتقلبات الزمان والظروف ومفاجآت وصدمات الحياة، لذلك لا أحب القول أني سعيدة أو أني لست سعيدة، أنا أعيش وهذا هو الأهم.

- وكأنك بجانبي كنت تموتين، لم ترحلي لتعيشي، رحلت لتكوني سعيدة، والآن تقولين السعادة مفهوم خاطئ، ألم تكن السعادة لديك مقرونة بحبنا، بتواجدنا معا؟ ثم صارت مقرونة بدفتر شيكات...؟

- كنت مخطئة، لا الحب يعني السعادة ولا دفتر الشيكات يعنيها.

- نادمة على اختياراتك؟

- ليس تماما، أعيش أحيانا بوخز ضميري لكني سرعان ما أنسى. عملي أحدث نقلة في حياتي، صرت أكثر نضجا، أكثر فهما للحياة،أكثر واقعية وأكثر بعدا عن الأوهام...

- الآن أصبحتُ وهماً؟

- و أنا يجب أن أصبح وهماً بالنسبة لك، اكتفي بنفسك، اكتفي بنصوصك. كنت متأكدة أنك ستغدو كاتبا ناجحا.

كان لابد أن ينتهي الحديث عند تلك النقطة، لا حديث بعد أن تحولت إلى وهم، لذلك شكرتها على اللقاء، وقمت مغادرا قبل أن تستوقفني ممسكة يدي اليسرى..

- ماذا بعد يا إيمان؟

دست يدها اليمنى في حقيبتها وأخرجت منديلا به بعض بقع الدم المترسبة، ألقيت بنفسي على الكرسي متثاقلا وكأني لا أصدق ما أرى، أنظر إلى المنديل بلهفة أحاول أن أتأكد أنه هو.. إنه هو نفسه، نفس المنديل الذي نظفت به جرحها وجرحي لحظة أوهمنا أنفسنا بزواج من دم. كيف لها أن تحتفظ به كل هذا الوقت؟ أجل أحتفظ بشفرة الحلاقة ولكني ما اعتقدت أنها ستحتفظ بالمنديل بعد أن اختارت الرحيل.. أخرجته ببطء من الحقيبة ومدته إلي، ترددت في إمساكه لكنها أصرت.

- يجب أن تأخذه، ما عاد له مكان بحياتي، احتفظ به رفقة شفرة الحلاقة، أعرف أنك تحتفظ بها، أنت قادر على الوفاء أكثر مني.

لا أدري أكان يجب أن أبتسم لأنها احتفظت به كل هذه السنوات، أم أن أحزن لأنها قررت أن تتخلص من آخر شيء كان يذكرها بي، أم أتحسر لأنها تتوهم وفائي. فكرت أن أخبرها عن أكرم وهاجر وسلوى وهشام... حتى أُدنسني في مخيلتها وأمحو صورة الوفاء التي ترسمها لي إلا أني تراجعت. فلأبقى وفيا داخلك يا إيمان.

لم نكمل معا الساعة والنصف التي حددتها مسبقا، غادرت بإصرار على أن يكون هذا اللقاء آخر الخطايا، عند باب المقهى مزقت بطاقتها، وقمت بدس المنديل تحت قميصي على أن أحرقه بمجرد ما

أعود لمدينتي، لم أشأ أن أحرقه بمدينة تقطنها هي، بمدينة لا أحبها أنا، بمدينة طُردت منها قبل سنوات بتهمة التدنيس...

الأسبوعان مرا سريعا في طنجة، كان لسفيان تلك القدرة على جعلي متوازنا بطريقة أكون فيها غير مدرك لنفسي ولا فاقد لها أيضا حتى و أنا أخبره بما حدث خلال لقائي بإيمان، استطاع أن يجعلني أبدو في صورة المنتصر رغم إحساسي المرير بالهزيمة.

- لقد هزمتني يا سفيان، وهذه المرة بالضربة القاضية.

- لم أكن أعتقد أن الحب أصبح معركة.

- كانت معركتي الأسمى.

- لا سمو في المعارك، المعارك معارك، والحب حب.

- انهزمتُ في معركة الحب إذن.

- لا تلاعبني بالكلمات لأني لن أجاريك، ولكن ألم تتعلم شيئا من كل ما حدث؟

- ربما لا، وربما تعلمت أن القدر أقوى منا ونحن أضعف منه.

- واضح أنك انتصرت إذن ما دمت مصرا على جعلها معركة.

أفكر في حوارنا وأنا أركب القطار، أعود إلى حيث أنتمي، اتخذت مكانا بجانب النافذة، سأحاول عد الأشجار كما العادة عند كل سفر، وسأفشل في عدها كما العادة. تقفز لمخيلتي صور ووجوه كثيرة عبرت حياتي، بعضها ينعكس واضحا على زجاج النافذة، بعضها من الزمن البعيد، وأخرى مازلت غير قادر على التخلص منها ليس لأنها تسكنني ولكن لأن دورها لم ينته بعد... ازدحمت الوجوه على النافذة، افتقدت القدرة على تمييزها لحظة ألقى ذاك الجسد الأنثوي المتعب بنفسه على المقعد قبالتي، تأوهت تعبا، يبدو أن حقيبتها كانت أكثر ثقلا من كتفيها، أو لعلها انزعجت بعد أن أفسدت الحقيبة تسريحة شعرها الأسود الداكن الذي تحرر من كل القيود ليلامس خصرها. من أين لها بهذا الشعر الطويل في زمن طغى القُصر على كل شيء؟ سألت نفسي هذا في صمت قبل أن أنتقل لأسألها بصوت هامس حتى لا أوقظ نيام القطار فيكتشفوا أن أميرة تركب معهم نفس القطار ليصيروا بذلك شركاء لي فيها.

- هل أساعدك في رفعها؟

لم يكن يهمني أن الحقيبة الملقاة بالممر ستعيق الركاب الذين سيلجون القطار أو الذين سيغادرونه بالمحطات اللاحقة، كان يهمني أن أفتح حوارا قد يكلفني تأخير فتحه طرفا ثالثا يلقي بنفسه جانبنا.

- إنها ثقيلة لا أريد أن أتعبك.

فهمت أن جوابها لم يكن رفضا، كان موافقة محاطة بستار اللباقة لذلك وقفت بتأني، حاولت أن أحمل الحقيبة بنفس التأني الذي اعتقدت أنه يتماشى ولباقتها المفرطة، لكن الحقيبة كانت أثقل من أن أحملها بيد واحدة، فهمت حينها لماذا تأوهت وألقت بجسدها بتلك الطريقة فقد كانت ثقيلة لدرجة احتجت فيها استخدام جسدي كاملا لرفعها إلى رف القطار.

- كيف تحمل جسدك الصغير كل هذا؟

تضحك في صمت، كانت ضحكة ملائكية أبانت عن أسنانها البيضاء المتناسقة المتراصة الجميلة التي زاد من جمالها ذاك الأسف الذي نطقته في خجل:

- آسفة جدا "عذبتك معايا".

- لا حاجة للأسف، هذه ضريبة أن أكون ذكرا.

ضحكت بنفس الجمال..

- أنا شيماء...

- فاس أو مكناس؟

- كيف عرفت؟

- لكنتك تقول ذلك.

- منتبه أنت للتفاصيل.

- تشغلني اللسانيات.

- فاس، وأنت؟

- نفس البؤس..

تحدثنا طوال الطريق، لحسن حظي أنه لا طرف ثالث أزعجنا. كثير من المسافرين كانت نظراتهم تقول أنهم يرغبون في أخذ المقعد بجانبنا لكنهم كانوا يتراجعون بسبب انصهارنا في الحديث وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن، كانوا يعتقدون أننا على قرابة لذلك فضلوا ألا يقتحموا خصوصيتنا.

شيماء، في عامها الثالث بعد العشرين، تعود لفاس بعد ثلاث سنوات قضتها بالمعهد العالي الدولي للسياحة، تخرجت قبل شهرين ولكنها لم تستطع حينها أن تنقل كل أغراضها دفعة واحدة من الشقة التي كانت تكترياه رفقة صديقاتها، لذلك عادت بالأمس لنقل ما تبقى من الأغراض.

- ثلاث سنوات بطنجة؟

- هل تبدو مدة طويلة؟

- جدا..

- لم تكن كافية بالنسبة لي، كنت أحتاج مزيدا من الوقت لأتحرر من نفسي أكثر...

- لذلك اخترت السياحة؟

- كنت أبحث عن مدينة أخرى فقط، لم أختر السياحة، هي اختارتني، كما كان بالإمكان أن تختارني التجارة والتسيير، أو الطب أو الهندسة... كنت أبحث عن تلك الأشياء داخل نفسي والتي لم أكن لأجدها لو تابعت دراستي بمدينة يسكنها أبي.

كنت على وشك أن أخبرها أني اخترت السياحة أيضا ولكن مضطراً، اخترت السياحة بعد ثلاث سنوات قضيتها محاولا تفكيك مورفيمات اللغة الانجليزية، ثم تخليت عن السياحة نفسها لأعانق ما ولدت من أجله، أو ربما هكذا اعتقدت وأعتقد، درست الصحافة. لم أخبرها بذلك، لم يكن الزمن الأنسب لأتحدث عن نفسي، فقد تدبرت في مخيلتي لقاء لنا بمدينتنا أخبرها خلاله كل شيء عني حتى ما لا أعرفه عني.

- نجحت في التحرر من نفسك؟

- نجحت في دراستي للسياحة، لم أكن أعتقد أنه وسط بحثي عن التحرر من نفسي سأقع في قيود ضميري ليصبح ذاك الأب، الذي كنت أعتقد أني أهرب منه، دافعا لي لأتفوق ولأحب السياحة، كانت

صورته وثقته بي لا تفارق مخيلتي، فهمت أن التحرر من نفسي يمر أولا عبر فهمي لأبي.

حط القطار أخيرا بمحطة فاس، حملتُ عن شيماء حقيبتها إلى الباب الداخلي للمحطة، أخبرتني أن أباها ينتظرها بالخارج لذلك لم يكن مسموحا لي بأن أخرج رفقتها، ترددت جدا في أن أطلب رقم هاتفها، ثم قررت ألا أفعل، شعرت أن طلبي سيحطم تلك الصورة التي رسمتها عني خلال الأربع ساعات الماضية لكنها اعتقدت غير ذلك..

- لم تخبرني باسمك.

- إسلام..

- سعيدة بلقائك يا إسلام.

ثم مدت يدها لفتح حقيبتها، تمكنتُ من اختلاس نظرة إلى ما يوجد ما بداخلها، هو ثقل الكتب إذن. أخرجتْ كتابا بواجهة زرقاء، ثم أخرجت قلما أزرق، فتحت الصفحة الأولى من الكتاب ودونت شيئا.

- تفضل، هذا من أجلك؟

تسلمت منها الكتاب بلهفة، "الإسكندرية في غيمة" لإبراهيم عبد المجيد، فتحت الصفحة الأولى في الحين دون تردد، كان رقم هاتف ما

مدون بأعلى الصفحة، و في أسفلها كتبت: "كان سفرا ممتعا.. لن يكون الأخير؟".

الكتاب، القلم، رقم الهاتف... كل ذلك لم يكن له إلا ليحزنني، كل ذلك قذف إلى ذاكرتي تفاصيل لقائي الأول بسلوى، وجدتني أنسحب بهدوء دون أن أودع شيماء.

عند مخرج المحطة، أخرجت هاتفي، ضغطت زر التشغيل أخيرا، ورقمت رقم هشام...

أخبرني أنه يتواجد بمطعمه، صوته بدا عاديا ولا أثر لنبرة حزن. لا، إني أتوهم كيف لي أن أميز نبرة صوته من مكالمة لم تمتد لأكثر من دقيقة واحدة.

أخذت الطاكسي وقصدت مطعمه دون أن أعرج على المنزل فقد كنت بحاجة شديدة لمحادثته وربما مواساته عن فقدانه سلوى، كنت أيضا قد قررت أن أسرد له حقيقة علاقتي بها رغبة في أن أجعله يقودها خارج قلبه، كنت أحاول أن أجعله يكره سلوى التي أحب حتى يستطيع العيش بسلام، لا بأس أن يحقد علي، لا بأس أن ينظر إلي بسوء، الأهم أن يعيش بقدرة على الحب من جديد، و أن أعيش أنا بضمير مرتاح ولو نسبيا.

هذا ما قررته بعد أسبوعين من محاولة إعادة بناء شخصي، بعد أسبوعين من محاولة إيجاد جواب لمن أكون، و من أجل ماذا أحيا...

ساعدني سفيان في أن أجد بعض الأجوبة، قال أني أحتاج لمصالحة ومصارحة نفسي، أحتاج للتخلص من تراكمات الماضي لكنه لم يخبرني كيف، لذلك اعتقدت أن الاعتراف بخطاياي وبأخطائي سيكون أول الطريق نحو إيجاد نفسي، اعتقدت أيضا أن هشام وطبعه الهادئ والبعيد عن النرفزة سيكون الأنسب لبداية رحلة الاعترافات الكثيرة...

ملامحه أكدت لي نبرة صوته،لا حزن،لا بؤس، لا إحساس بالفقدان... عانقته بحزن، عانقته عناق مذنب هزمته الحياة، وعانقني بابتسامة عريضة. ألم يعد للموت هيبة؟ هل فقد الموت قدرته على أن يُحدث بداخلنا ذاك الجرح الغائر؟ هل أصبح للموت القدرة على أن يجعلنا نبتسم بدل البكاء؟ هذا ما تقوله ابتسامتك يا هشام. أين سلوى من هذه الابتسامة؟ أيُعقل أنها لم تمت وأني توهمت كل ذلك؟ لا لم أصل لتلك المرحلة بعد. لماذا تبتسم يا هشام؟ لم يكن بمخيلتي لحظتها إلا سؤالي هذا لكني افتقدت للقدرة على أن أنبسه بطريقة مباشرة.

- آسف هشام، تأخرت في تقديم تعازي لك.

- لا يهمك أخي.

- أخبرني، ماذا حدث بالضبط؟

- الموت جزء من حياتنا يا أخي أو دعني أقول أن الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياتنا لذلك ما حدث بسيط، كائن وانتهى أجله ونحن يجب أن نستمر إلى أن ينتهي أجلنا أيضا.

وجدتني أهز رأسي إلى أعلى فإلى أسفل مبديا موافقتي على ما يقوله رغم أن داخلي لم يكن مقتنعا بالمطلق، ربما لأني لم أجرب إحساس أن يموت أحد ممن يوجدون وسط قلبي. لا، بل أتذكر أنه مات جدي قبل سنوات، كنت صبيا حينها لكني كنت أفهم معنى الموت، كنت أفهم أن جدي غادر إلى حيث لا عودة وأننا سنلتحق به جميعا، أنا وأبي وأمي وشقيقي وشقيقاتي التسعة... لنجتمع جميعا بجانب واد يصب لبناً بدل الماء، كانت لي القدرة على تخيل هذا المشهد، مازلت أؤمن بأن هذا سيحدث برغم أني صرت ملطخاً بخطايا كثيرة.

- أحب إيمانك هذا، لم أعتقد أنك ستكون بهذه القوة.

- الحياة أقصر من أن نضيعها في الحزن على أشياء من الماضي.

ليس عندما يكون ذاك الماضي هو حياتنا بكاملها، ليس عندما تكون حياتنا قد توقفت بالماضي، ليس عندما نترك أنفسنا بالماضي ونعيش الحاضر بذات مجردة من كل شيء، مجردة من أحلامها، مجردة من أهدافها، ومجردة من كل شيء جميل... افتقدت القدرة لأجيبه بهذه الطريقة، ووجدتني أبحث عن رد يناسب شخصه وطريقة تفكيره المفاجئة. تصنعت البسمة ونبست بحماس تصنعته هو أيضا.

- هذا سيساعدك على أن تقع في الحب من جديد أو على الأقل أن تجد بديلا لسلوى.

- وجدت...

قال هذا وانسحب ليخدم أحد الزبناء الذي التحق بالمطعم لحظتها، تاركا إياي وسط دوامة من الاستفهامات التي شرعت مخيلتي في نسجها دون توقف. كيف لإنسان أن يجتاح النسيان قلبه في أسبوعين فقط؟ كيف لإنسان أن يتجاوز حقيقة موت "من يحب" بهذه السرعة وأن يجد له بديلا بنفس السرعة؟ أكان حبه لسلوى مجرد وهم؟ أكان يبحث عن الزوجة فقط؟ ربما هو فقط لا يريد أن يترك مجالا للفراغ الذي قد يذكره بسلوى وينغص عليه حياته لذلك بحث عن أخرى...

أقنعت نفسي بهذا، كنت أبحث عن تبرير له، لا أريد لصورته تلك بداخلي أن تهتز، أقنعت نفسي أيضا بالتراجع عن قراري الاعتراف له بحقيقة علاقتي بسلوى، فقد تكون أكثر طهرا منا جميعا، ما عاد الاعتراف يجدي مادام هشام قادرا على المضي قدما حتى وهو لا يعرف حقيقتها.

- ماذا تعني بأنك وجدت؟

- وجدت الأنثى الأنسب.

- بهذه السرعة؟

- أخبرتك أن الحياة أقصر من أن نحزن.

- لم تتزوج بعد، صحيح؟

- لا لم أفعل، أنتظر أن تمر أربعينية سلوى لأفاتحها في الموضوع..

- أحب احترامك لروح سلوى، أُقدر نبلك هذا.

- خاصة وأنها شقيقتها.

- شقيقتها، هاجر!؟

قفزت صورة هاجر لمخيلتي بسرعة، تذكرت مكالمتنا الأخيرة، ووجدتني أذكر اسمها دون أن أقصد ذلك، كانت الصدمة أكبر من أن أفكر قبل أن أتكلم ، وفي نفس اللحظة تهدمت صورة هشام الهادئ بداخلي، تهدمت حينها أشياء كثيرة أخرى، كان ما تبقى من ذاتي نفسه يتهدم، لم أكن لأتصور أن لحظة صبيانية مع صديقي أكرم ستوصلني إلى كل هذا. لا، لم أكن أحب هاجر، لكنها كانت توجد بمكان ما داخلي، فكرت أني قد أفقدها للأبد، ربما يجب أن أفقدها لينتهي كل هذا العبث.

- تعرفها!؟

لم يكن سؤالا، كان اندهاشا، هكذا أوحت نبرة صوته وحركة عينيه... أعرفها، وأعرف تفاصيل حياتها من يوم اختار القدر أن يُلقيها بطريقي، أعرف أنها أنثى تقرأ، أنثى لا تُزين معصمها الأساور، ولا أذنها الأقراط، ولا ساقها الخلاخل... أعرف أنها لا تشبه شقيقتها، وأنها لا ترى الزواج هدفا ساميا ولا مقدسا، لن تغريها يا صديقي تلك البطاطس الشهية التي تصنع، تغريها أشياء أخرى، تغريها قصيدة شعر بلغة صريحة، تغريها رواية بنهاية غامضة لا يفهمها إلا كاتبها، تغريها تلك النقاشات الطويلة عن الصمت، يغريها كأس ماء بارد جدا يتوسطها وذاك الذي يجلس قبالتها على مائدة "الحب"، يمد هو يده للكأس و تُسرع هي لسحب منديلها الورقي من الحقيبة، يختم هو إلقاء قصيدته بعينيه اللامعتين، وتصفق هي بأناقة كامرأة أرستقراطية تنتمي للعهد الفيكتوري، تكون هي معجبته الوحيدة، ويكون هو شاعرها الوحيد... أجل هو رجل احتياطي في حياتها، أجل احتياطي أنا، لا بأس بذلك لكن كيف لي أن أسمح بأن أصير خارج حياتها يا هشام؟ زواجك منها يعني أني لن أبقى حتى ذاك الاحتياطي، إنك تود طردي وللأبد، من سينصت لقصائدي، ومن سيصفق لإلقائي، ومن سيشعرني بذاك الرقي؟ لمن سأكتب رسائلا بالحبر بدل لوحة المفاتيح، وفي حضن من سأنهزم وأنا أسرد ضعفي؟ يا هشام ،يا صديقي، إنك لا تدري أنها الوحيدة من تجرأتُ على أن أخبرها حقيقتي، الوحيدة التي أخبرتها عن السكين الذي اخترق جسد أمي من الخلف، وعن شقيقتي التي اختارت أن تُحلق رفقة السحب بدل

جحيم سقف من طين، هي الوحيدة من أخبرتها عني، عن ذاك الطفل الذي غادر حضن والديه وهو في العاشرة من عمره، غادرت محملا بأحلام كثيرة... دموعي ذاك الصباح الممطر كانت حافزا لي، أقسمت على أن أحفظ ذاتي من مغريات مدينة أجهلها بأناسها ومتغيراتها، غادرت نحو مدينة لا أعرفها بإصرار على أن أجد نفسي هناك، مجرد طفل، مجرد صبي متحمس يحلم بغد غريب، قاومت نفسي كثيرا وسط هذا العالم الغريب حتى أعانق أحلامي، والأهم قاومت لأحافظ على نفسي بنقائها كما غادرت أول يوم لكني تلوثت، تلوثت بأفكار ورغبات ما كان لي علم بها من قبل... فقدت نفسي وصرت لا أعرفني، ضاع كل شيء بالطريق، صدمة تجر صدمة، وخيبة تلي خيبة، إلى أن أصبحت شظايا إنسان يقاوم من أجل البقاء وربما من أجل الموت بشرف، شظايا إنسان غادر محملا بأحلام كثيرة وفجأة هزمته امرأة، وما كانت النساء في الأصل ضمن أحلامه...

إنها يا هشام لم تسألني قط عمن تكون تلك المرأة، كانت تنصت لأوجاعي في صمت وأحيانا تمد أناملها لخدي لحظة أفشل في مقاومة دموعي، ليست مجرد أنثى في حياتي، هاجر أعظم من ذلك بكثير، أنها أنا بلغة أحرى يا هشام.

منحني أحد الزبناء الذي ولج المطعم لحظتها الفرصة لأتذكر كل هذا، كما منحني الوقت الكافي لأفكر في ما يجب أن أجيب به هشام وهو يسألني إن كنت أعرفها...

- لا أعرفها طبعا، ما عدا ما أخبرتني به سلوى عنها.

بدا أنه صدق ذلك، أخبرني بعدها أنه رآها لمرة وحيدة عندما رافقت شقيقتها لمطعمه وأنه فكر كثيرا قبل أن يقتنع بخطوته تلك. أخبرني أيضا أنه متأكد من أنها تشبه شقيقتها في كون والديهما قد أحسنا تربيتهما، و انه هو لا يبحث إلا عن "بنت الناس" التي تحفظ أسرار بيته و تجيد تربية أبنائه...

كان يتحدث بلغة الماضي عن المستقبل، وكنت أرغب بشدة في أن أحدثه بلغة الواقع وأخبره بكونها لن تقبل أبدا بزواجها منه ليس لأنه الرجل الثالث في حياتها، و إنما لكون أحلامها تلامس سقف السماء، لم أقدر على قول ذلك وفضلت أن أغادر.

كانت رائحة المنزل سيئة، بدا وكأني غبت عنه لسنتين وليس لأسبوعين، كنت مضطرا لترتيبه وتنظيفه رغم التعب ورغم الصدمة. احتاج مني كل ذلك لساعة كاملة، حاولت بعدها أن أنام لكني فشلت، كانت أفكار كثيرة تمنعني من ذلك، ألغيت فكرة النوم و أخذت الهاتف محاولا الاتصال بهاجر إلا أن هاتفها كان خارج الخدمة لذلك شغلت التلفاز وحاولت عبثا التركيز في متابعة فيلم "نهاية العالم" قبل أن يقاطعني طرق بالباب..

- أين اختفيت لأسبوعين؟

كان صوتها ومحياها صارمين، وعلامات الانزعاج جلية في عينيها إلا أن ذلك لم يمنعها من الارتماء في حضني.

- حاولت الاتصال بك للتو، هاتفك خارج الخدمة.

- كنت أطرق هذا الباب كل يوم، أتصل بك كل يوم لعلك تمنحني بعض الأمل لأستمر، لعلك تضيء بداخلي شمعة، لا بأس أن تحرقني لكن أضئ لي المسار فما عادت بي قدرة على السير باتزان، فقدت قدرتي على القراءة، فقدت قدرتي على الكتابة، لقد فقدتُني واعتقدت أني فقدتك أيضا. لم أفهم هذا الغياب الذي اخترته، لم أفهم أن تتركني وحيدة وسط كل هذا الخوف، وسط كل هذا الضياع.

- تركتك لأكرم، هو أحق بك مني، هو سيمنحك ذاك الأمان الذي تحتاجينه، أنا لا. بي من الخوف ما يشبهك، ومن الضياع ما يقف حاجزا أمام محاولتي بعث ذاك الأمل فيك.

لست أعتقد أني قلت ذلك من أجل أكرم، قلت ذلك من أجل نفسي محاولا أن أقنعني بأن رحيلها أصبح قريبا جدا لذلك يجب أن أُعوِّد نفسي على غيابها، فضعفها يومها وإحساسها بالضياع سيُسهل مهمة هشام في إقناعها بالزواج منه، ليس لأنثى أن ترفض زوجا في مثل حالتها النفسية السيئة، حالتها تشبه ذاك المخمور الذي لا يعي ارتكابه للجريمة إلا بعد فوات الأوان، لا أحد سيخلصه من السجن، ولا أحد سيخلصها هي من زوج بينه وبينها مسافة تفكير مختلف،

ومسافة رغبات مختلفة، ومسافة غايات مختلفة... هو يريد زوجة، وهي تريد السماء.

لم أكن أدري إن كان يجب علي أن أوقظها من ضياعها وأن أعيد ذاك الاتزان لشخصها، لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك على أي حال لذلك اخترت أن أستمر في صنع مسافة بيني وبينها، والحقيقة أني كنت أصنع منطقة أمان لنفسي ..

- أكرم يمنحني شحنة حب، وأنا لست في حاجة لشحنة حب بمرحلتي هذه، أنا في حاجة لفلسفة حياتك، لقدرتك تلك على السخرية من أوجاعك. علمني كيف أفعل ذلك، علمني كيف أجعل ملامح سلوى ضاحكة في مخيلتي...

- إنك في بداية الطريق، مازالت أوجاع ومآسي كثيرة تنتظرك هناك عند كل منعرج تمرين به، ستتعلمين عند كل جرح، عند كل دمعة، عند كل إخفاق، عند كل هزيمة ستتعلمين كيف تصبحين صخرة ملساء، انتظري فقط.

- أخاف الانتظار..

- الأسوء من الانتظار أن تنتظري الفراغ، أن تجدي نفسك وسط اللامكان، وسط اللازمان... تلك اللحظة حيث تحسين أنه لا أحد من حولك رغم أن كل الناس يوجدون من حولك، تلك اللحظة حيث تفقدين الإحساس بكل شيء.

- أتقصد الموت؟

- هو موت على أي حال، موت على قيد الحياة.

كانت نظراتها توحي بالخوف وربما بالهزيمة، دموع كثيرة قاومت طويلا ثم استسلمت للخوف، لم أفكر في أن أمد يدي كالعادة لمسحها فما عاد ينفع، ما عادت ملكا لي، لم تكن ملكا لي قط، أخذتها من آخر وحاولت بعبث أن أصدق أني فعلت ذلك لتحبه أكثر.

بدوت أنانيا، أردت أن أثبت لنفسي أني أصل لكل ما أريده، هو ضعف أعانيه، لكني قط لم أخدعها، كنت صادقا، لم أزعم حبا، لم يكن ما بيننا مجرد حب. هذا ما اكتشفته وأنا أنظر في عينيها الدامعتين الجميلتين، وفي الآن ذاته أفكر أنها قد تصبح ملك هشام بعقد مختوم من المحكمة، وبيننا عقد مختوم بخطيئة الخيانة. غادرتْ وما اكتفيت منها، غادرت وتركت الباب مفتوحا من خلفها، لأول مرة تفعل ذلك، لا أدري ما الذي جعلها تتركه مفتوحا، ماذا أرادت أن تقول لي؟ قد يكون مجرد سهو تعانيه. لم أقم لأغلقه، حملت نفسي وغادرت أيضا، فقد بدا المنزل مكتظا ومزدحما بالأفكار الكثيرة التي تحوم حول مخيلتي، لم أعد قادرا على تحملها فقصدت وسط المدينة لعلي أتخلص من كل تلك الأفكار.

وجدتني أمشي وحيدا إلى لا مكان، مجردٌ من نفسي وسط مدينة فارغة من كل شيء إلا منها. الصمت يسكن الشارع، يقاوم عبثا

صخب الموسيقى الذي انبعث من ذاك المرقص على يساري، الجميلات بتنانيرهن القصيرة وأحمر شفاههن الذي لم يفسده دخان " الشيشة " ولا دخان السجائر، بدأن في الانسحاب نحو حقيقتهن، نحو حضن الأسرة البئيس، المقيد لحرية أجسادهن.

كانت العاشرة ليلا أو العاشرة إلا أنا، ساعة يدي تكسرت في مكان ما لا أتذكره لكني أتذكر أنها تكسرت بعد ثلاث سنوات

من تكسر قلبي. هاتفي لم أكن احمله، قذفته بزاوية ما في المنزل لعلني أنفصل قليلا عني، عن ذلك الأنا الذي يعتقد الآخرون أنه أنا، لا أرتدي قناعا، التراكمات غيرت ملامحي.

كنت خائفا لحظتها من كل شيء، من الناس، من نفسي، من محيطي... لكن خوفي لم يمنعني من أن أتوسل ذاك العابر بجانب حياتي بأن يمُد يده ليسحبني من ذلك الهامش، من تلك الظلمة.

مشيت نحو ذاك المرقص المظلم لعلي أجد نورا هناك. لم أستطع أن ألجه، وقفت متسمرا عند الباب، انتابني إحساس بالغربة عن المكان، لا أنتمي إلى هناك. عدت إلى نفسي، عدت إلى المشي بأفكار لا قدرة لي على ترتيبها، كنت أعاني فوضى الأفكار، أعاني تيها قادني دون إدراك لأطرق باب أكرم في ذلك الوقت المتأخر.

وصلني صوت خطواته تتجه نحو الباب، لكنه لم يفتح، واضح أنه اكتفى بالنظر عبر العين السحرية للباب ليعرف الطارق، ربما لم يرقه

مجيئي وقتها، أعدت الطرق مرتين لكنه لم يفتح. لست أعرف لماذا زرته، كان داخلي يحتاجه، هل كنت سأخبره بزواج هشام وحبيبته هاجر؟ حتماً ما كنت لأفعل، ما كان ليتحمل رحيلها. لقد كان يعيش من أجلها، ولكن ما أدراني أنه لم يكن يزعم ذلك؟ ألست أنا من يؤمن بأنه لا أحد يعيش من أجل أحد، ولا أحد خُلق من أجل أحد، ولا أحد يُكمل أحد؟ وأنه عندما نقول: "أنت خُلقت أجلي" فإننا نكذب، نقول ذلك مجاملة أو أننا نقوله بحسن نية ولكن دون القدرة على إقناع عقلنا به. إننا نعيش من أجل سعادتنا أولا، هي معركة فطرية ندخلها منذ اللحظة الأولى التي نعي فيها تواجدنا، ولذلك نحن نكذب أيضا عندما نقول لحظة سُكرٍ عاطفي: "الأهم بالنسبة لي سعادتك ولو مع شخص آخر "... نكذب لأننا يستحيل أن نتمنى لشخص آخر السعادة على حساب سعادتنا، أنا الوحيد من كنت أعيش من أجل أنثى، بل كنت أعيش من أجل نفسي، كانت نفسي.

نمت ليلتها طويلا، لم أستيقظ إلا على صوت جرس الهاتف، كان مدير دار النشر، الذي اعتدت التعامل معها، يخبرني أن كتابي جاهز للطبع، ويسألني إن كنت أود إضافة إهداء للكتاب قبل طبعه، لم أفكر في الأمر من قبل، من سيبالي إن أنا أهديته كتابا ملطخا بمقالات سياسية تافهة.

" من بن كيران إلى الزفزافي.. ماذا تغير في المغرب؟" من سيكترث إن أنا رقنت اسمه في بداية كتاب يحمل عنوانا تافها كهذا؟ ثم فكرت أن

أهديه لسلوى لكني تراجعت، لم أشأ أن أدنس رحيلها، أهديه لإيمان؟ لا إنها قد لا تعرف من هو بن كيران ولا من هو الزفزافي.

" إلى شقيقتي التي لم يهزم السرطان بسمتها" هذا ما طلبت منه أن يكتبه قبل أن أغلق الخط وأستغرق في تأمل حقيقة هربت منها طويلا.

شقيقتي التي تقاوم من أجل الحياة، عائلتي التي ما عادت تعرفني، هذه المسافة التي صنعتها لنفسي وما عدت قادراً على إلغائها، عزلتي عنهم واختياري العيش وحيدا يمزقني في صمت، صرت أفتقد القدرة حتى على حمل الهاتف ورقن رقم أمي، أشياء كثيرة بداخلي تمنعني، اشتقت للطفل الذي بداخلي.

كنت مجرد طفل عادي، يرى في أمه اليقين، وفي والده الصبر، وفي شقيقاته الأمل، وفي شقيقه القدوة... نشأت وسط قرية قاسية، هناك مارست أولى هواياتي، كنت أصطاد القطط رفقة مجموعة من أطفال القرية، قبل أن نتحول إلى مداعبة الكرة بمصلى كان يصلح للعب الكرة أكثر منه للصلاة. أتذكر تحذير ذاك الغريب الملتحي لنا من عاقبة اللعب هناك، لم نعره اهتماما إلا أن كلماته أيقظت شيئا ما بداخلي. بمعية أولئك الأطفال كنت أختصر الحياة في مباراة لكرة القدم قد تنتهي بعشرة أهداف لصفر... لاحقا هزمتنا الحياة بنفس النتيجة. بقريتي ارتكبت أول جريمة سرقة في حق شجرة تفاح وشجرة

برتقال، وبقريتي دخنت أول سيجارة، كانت مسروقة أيضا، كانت أول وآخر سيجارة.

بعدها اعتزلت السرقة وكان هذا أكبر خطأ ارتكبته لأني عندما كبرت أدركت أن اللصوص أصبحوا قادة سياسيين و زعماء أحزاب... بعدما اعتزلت اصطياد القطط وسرقة الأشجار المثمرة، تحولت لصيد الطيور بمقلاع مطاطي ساعدني شقيقي الوحيد على صنعه أول مرة، ثم صرت أجيد صنعه باحترافية، شقيقي علمني طريقة الصيد أيضا، كنت أقضي رفقته الساعات الطوال تائهين بين أشجار الزيتون والبلوط، ومتنقلين بين المقابر الثلاث والواد الوحيد... كان صيد الطيور بالمقابر أسهل، فالطيور هناك تبدو مستسلمة تماما، لا تخاف البشر وكأنها تعتقد أن كل البشر أموات قبل أن يجعلها شقيقي بمقلاعه تدرك أننا أحياء، تدرك ذلك متأخرة جدا.

اعتزل شقيقي الصيد بعدما صار راشدا، وتابعت أنا المسار لوحدي، اكتشفت أماكن وحيلا جديدة للصيد، فكنت أصيد أحيانا ما يزيد عن خمسة عشرة طائرا في اليوم الواحد ومن أصناف مختلفة، بعضها أشويه، وبعضها أمنحه وجبة للقطط التي اعتزلت صيدها...

في العاشرة من عمري أجبرتني الحياة على أن أصبح ناضجا، اعتزلت طفولتي، اعتزلت صيد الطيور، واعتزلت قريتي، واعتزلت أمي أيضا... أصبحت أراها مرتين في السنة...

في الحياة يجب أن نعيش مجردين من كل شيء إلا من إيماننا، وحده إيماننا ما قد يساعدنا على إكمال المسار بإيجابية رغم كل الصدمات التي قد تعصف بنا من كل جانب، إيماننا وحده القادر على جعلنا نتجنب تلك الأوجاع التي تفرضها علينا متغيرات الزمن، فكل شيء في حياتنا قد يتغير في لحظة، وبكلمة..

- موافقة.

بهذه الكلمة، وبهذه البساطة اختارت هاجر أن تصبح زوجة لهشام، اختارت أن تضع حدا لعبث طال، ولحب ما عاد يجدي. شعرت بانزعاج شديد وهشام يخبرني موافقتها، لا أدري هل انزعجت من أجل نفسي أم من أجل أكرم، لا أعتقد أني انزعجت من أجله فقد كنت أول من غدر به، لكني فعلت من أجل الحب، كنت أعلم أنها سترحل يوما وكنت أؤمن أن الذين يختارون الرحيل ليسوا بالضرورة خونة ولا هم أوغاد، الذين يرحلون بنصف الطريق لا يعني أنهم يكرهوننا، والذين يلجون حياتنا بدلا عنهم لا يعني أنهم يحبوننا، طبيعة الحياة هكذا، تجبر البعض على الابتعاد، ونفس الطبيعة تجبر آخرون على الاقتراب... لا أحد يبقى للأبد ولا أحد يرحل للأبد حتى الأموات، كنت أؤمن بكل هذا إلا أن داخلي لم يكن على استعداد لتقبل أمر رحيل هاجر.

تركت هشام سعيدا وسط مطعمه، يخدم زبائنه ببسمة منبعثة من أعماقه أما عمقي فمهزوم للحد الذي أفقدني القدرة على التفكير

ووجدتني أتصل بهاجر أطلب منها الالتحاق بي فورا بالمنزل، بدا صوتها أكثر انزعاجا مني، فتخيلت أنها وافقت على مضض.

- ما هذا؟ ما كانت علاقتك بسلوى؟

رمت بالكتاب في وجهي وهي تسألني ذلك بغضب شديد.. "الشيخ والبحر"، تلك الرواية التي كانت سببا في علاقتي بسلوى، تذكرت لحظتها أني دونت رقم هاتفي على صفحتها الأخيرة يوم التقيت سلوى لأول مرة وسط المكتبة، لم أنس أمرها، بل على العكس من ذلك، كنت دائما أتوقع أن يحدث هذا، كنت على يقين أنها ستقصد يوما خزانة كتب شقيقتها لتكتشف أمر الرواية، فلم أنس قط أنها أنثى تقرأ وأنه في القراءة توجد الحقيقة، توقعت أنها قد تكتشف الأمر قبل ذلك بكثير إلا أن القدر منحني الكثير من الوقت.

ما كنت لأتصور أن ما يجمعنا ببعض الناس قد يكون سببا في فراقنا عن آخرين، وأن ما يكتب سعادتنا قد يكتب بؤسنا أيضا...

لم تمنحني تلك الفرصة لأشرح لها ما لا أملك له شرحا، حاولت أن أرتجل بعض الكلمات لعلي أطفئ هذه النار بداخلها، لم تشأ أن تسمع وسحبت الباب من خلفها بخشونة وغادرت لتتركني وحيدا أحاول أن أستجمع ما تبقى مني بعد كل هذا الفقد. الحقيقة أنها تركتني قبل ذلك، تركتني عندما نبست بالموافقة على طلب هشام

بالزواج منها ولكن ماذا لو أنها وافقت فقط بعدما اكتشفت أني كنت على علاقة بسلوى؟ هل أنا من دفعها للزواج؟

الزواج ليس دائما اختيار، الزواج لم يكن في يوم اختيار، كان إكراها منذ الأزل. الخوف من الاستمرار لوحدنا، الخوف من أنفسنا لحظة تزاحم التجاعيد بسمتنا، الخوف من نظرات المجتمع والحقيقة أن المجتمع لا قدرة له على الرؤية... الخوف ما يدفعنا للزواج وإلا لماذا سنفكر في العيش رفقة آخر لا يشبهنا وللأبد؟

لم تختر هاجر الزواج، لم تختر هشام كزوج، اختارته كمنقذ لها من ضعفها، اختارت أن تبتعد عن نفسها كأنثى تقرأ وأن تصنع لها حياة وعالما جديدين. لا أدري إن هي علمت أن هشام كان ينوي خطبة شقيقتها ولكن لا يهم، فحتى وإن علمت بذلك فلا أعتقد أنها سترفضه، ضعفها كان أقوى من كل قناعاتها. لا أعتقد أيضا أنها ستقدر يوما على الوقوع في حب هشام لأن أحلامها وطموحها الدفينة أكبر بكثير من أن تحبه، أحلامها تلامس السماء وأحلامه تلامس سقف مطعمه. لقد قررت أن تتنازل عن كل شيء لتختزل حياتها في مطبخ وغرفة نوم بحثا عما يسميه مجتمعنا "الاستقرار" رغم أن الزواج لا يعني بالضرورة الاستقرار، فقد يكون بداية لصراعات طويلة لا تنتهي إلا بالعودة إلى حيث كانت البداية...

كادت هذه الأفكار المتراكمة بمخيلتي أن تخنقني، لم ينقذني منها إلا ذلك الكتاب الأزرق المندس بين أوراقي المتناثرة على سريري، سحبته

من بين الأوراق فتذكرته في الحين.. "الإسكندرية في غيمة"، هو نفسه الكتاب الذي قدمته لي خريجة معهد السياحة تلك، شيماء.

تذكرت أنها أيضا دونت رقم هاتفها بأعلى صفحته الأولى لذلك لم أتردد في الاتصال بها، فكرت أن بمقدورها أن تصنع لي زاوية على هامش حياتها أنسى فيه كل شيء، اعتقدت أنه بمقدورها أن تجعلني أتعثر في شخصيتها الجذابة المرحة، لم أؤمن قط بمقولة أنه لا يُنسي الرجل في امرأة إلا امرأة مثلها، لكني آمنت دائما أن لكل شيء بديل في الحياة. أجل دائما ما هناك بديل، بديل عن أخطائنا، بديل عن فشلنا، بديل عن فرصنا الضائعة، بديل عن خيباتنا، بديل عن كوب قهوتنا المسكوب في غفلة منا، بديل عن جرح شُفينا منه بعد سنوات من الوجع، بديل عن دقيقة غضب نقول فيها ما يُهدم أحلاما كلفنا بناؤها أشهرا ودموعا، بديل عن عناق رفضناه لحظة خوف، بديل عن حضن يحمينا أثر قسوة الناس وإن كان بعطر مختلف، بديل عن صمت يخاطب أعيننا أفضل من كلمات تخاطب سمعنا، بديل عن ثرثرة غير مفهومة لكننا نفهمها، بديل عن ديسمبر رقصنا فيه وديسمبر بكينا فيه وديسمبر فقدنا الإحساس فيه وديسمبر آخر لن نكون فيه معا، بديل عن ليل لم ننمه بهجةً وليل لم ننمه وجعاً، بديل عن ليل قضيناه نُحدث أنفسنا بحب عبر هاتف رخيص وليل قضيناه نودع أنفسنا بدمعة عبر هاتف ما عاد رخيصا، بديل عن مساء سبت دعونا فيه بالخطأ أنثى لا تجيد الرقص... بديل عن مواعيد ملغاة، بديل عن أصدقاء اختاروا أنفسهم عوضا عنا، بديل عن أناس اخترنا

أن نمشي رفقتهم في الظلمة وبمجرد ما لاح النور في الأفق تركوا أيدينا، بديل عن أناس تركناهم في الماضي، بديل عن أناس بنينا رفقتهم في مخيلتنا أسقفا وجدرانا وأسكناهم أنفسنا. في الحياة هناك بديل عن كل شيء، ربما ليس عن الحب ولكن دائما ما هناك بديل عن أنفسنا.

في الحياة هناك بديل عن كل شيء، ربما ليس بنفس الطعم لكنه يبقى بديلا حتى وإن كانت شيماء مختلفة إلا أنها بدت البديل المناسب لهاجر.

رن الهاتف طويلا قبل أن تجيب، لم تتوقع أن أكون أنا لكنها تذكرتني بمجرد ما أخبرتها عن القطار والحقيبة وعن "الإسكندرية في غيمة"... تذكرتني متسائلة عن كل ذلك التأخر في الاتصال بها، اكتفيت بالقول أنها انشغالات الحياة، نصوص كثيرة كان يجب أن أنهيها ومقالات كان يجب أن أرسلها... تحججت بالكتابة، ما كان يصح القول أني نسيت أمرها، ليس لامرأة أن تسامح رجلا نسي أنها عبرت حياته ولو ذات صدفة.

قالت أن رتابة الأيام تخنقها، وأنها لا تغادر المنزل إلا مضطرة لذلك رأت في دعوتي لها حبل نجاة مما تعيشه مذ عادت من طنجة،

اتفقنا على أن نلتقي وسط المدينة بجانب المعهد الثقافي الفرنسي، لا يعني لي ذلك المكان شيئا، هي من طلبت أن نلتقي هناك، ربما يعني لها شيئا، ربما يذكرها بجزئيات من ماضيها، وقد تكون كما أنا، تبحث

عمن يشيد جسرا ينقلها للضفة الأخرى من بؤسها، أبحث فيها عن النسيان، وتبحث في عن النسيان.

تأخرت نصف ساعة عن الموعد المتفق عليه ثم لاحت لي على بعد أمتار تخطو مسرعة، كانت في كنزتها الخضراء، وتنورتها القصيرة السوداء التي ترتديها فوق بنطلونها الجينز الأسود، وحذائها الرياضي الأخضر المخطط بالأسود... تبدو كفراشة تطير نحوي متلهفة، لم تعتذر على التأخير ولم أعاتبها، خفت أن عتابي لها سيجعلها ترسم لي صورة صارمة بمخيلتها سيصعب محوها، لأن انطباعاتنا الأولى عن الآخرين تحتاج لسنوات من أجل أن نتخلص منها وغالبا لا ننجح.

قبل أن نلتقي كنا قد اتفقنا على المشي دون وجهة، لم تكن لي رغبة في مجالستها في مقهى أو في مطعم لذلك بمجرد ما التقينا حتى وجدنا أنفسنا نمشي في اتجاه حي اليهود، ومنه إلى "جنان السبيل" أو الحديقة التي منحها مجلس المدينة اسم المسيرة الخضراء، ثم خطونا لداخل ساحة "بوجلود" التي فشلت في أن تصبح شبيهة بساحة "جامع الفنا" كما فشلت قبلها ساحة "الهديم" بمكناس... أخذنا مكانا على أحد المقاعد الإسمنتية في الجهة الشمالية من الساحة، كنا نتأمل في صمت حركة الناس وتلك الأجساد المتلاحمة المتزاحمة حول مروض الأفاعي وسط الساحة، قبل أن يقطع سؤالها صمتنا:

- تحب هذه المدينة؟

- لا أدري، ربما لا أحبها..

- ألم تفكر في الرحيل عنها؟

كنت سأجيبها إيجابا وأني فكرت في ذلك الكثير من المرات إلا أن رنين هاتفي أجبرني على الصمت، استأذنتها في الرد، كان رقم زوجة شقيقي..

كنت قد اعتدت الرحيل، وكنت أعتقد أني أفهم معناه بعمق إلا أن مكالمة هاتفية واحدة ألغت كل ما أعرفه عنه، توفيت شقيقتي.

هذا ما أخبرتني إياه زوجة شقيقي، فوجدتني أترك شيماء راكضا دون أن أخبرها بشيء ودون أن أودعها، لم أكن أحس بنفسي، كنت أعبر الأزقة والشوارع دون وعي ولا كنت أعي ما يجب أن أفعله. لحظتها فقط فهمت ما أحست به هاجر لحظة وفاة شقيقتها سلوى، فهمت كم كنت غبيا وأنا أحاول مواساتها، آخر ما احتجته لحظة إخطاري بوفاة شقيقتي هو المواساة، فلا أحد سيفهم عمق إحساس الفقد ذاك، لذلك يكفي الصمت.

لم يمنحها السرطان فرصة أخرى للحياة، أو لعلها هي من لم تستطع مقاومة شوقها للجنة، أجل هزمها شوقها للجنة وليس السرطان ما هزمها.

سنوات كنت قد قضيتها في الكتابة عن أوجاع الرحيل، وآلام الفقد، وآهات الشوق... ثم اكتشفت أن كل ما كتبته مجرد محاولات فاشلة، كل النصوص التي كتبتها، كل النصوص التي أبكت الكثير من قرائي، كل الآهات التي كتبت بعضها بعيون لامعة أثر الدمع، كل تلك الليالي التي لم أنمها، وكل فناجين القهوة تلك التي احتسيتها و أنا أحاول أن أنسج نصوصا تصور حالتي جراء رحيل توهمت أنه الأقسى، كل ذلك كان مجرد وهم، كل ذلك كان مجرد نقطة صغيرة وسط محيط، لم يكن ألما ولا كان وجعا... الوجع هو ذاك الجحيم الذي تواجدت

وسطه لحظة رحيل شقيقتي، الألم هو ذاك الصمت الذي لا أمل في أن يكسره أحد.

أصبحت تفاصيل غرفتي بمنزل العائلة تخيفني، ذاك الثقب الصغير بذاك الجدار على يسار غرفتي، أنظر إليه كما لم أفعل من قبل، أراه لأول مرة حتى. هل كان هناك قبل ذاك اليوم؟ كيف لي أن أنتبه؟ انتبهت يومها فقط، انتبهت بعدما صار الفراغ يسكنني، انتبهت لذاك الثقب الصغير، وانتبهت لخيوط العنكبوت أعلى الباب قبالتي، انتبهت أيضا لتلك النافذة المعطل ستارها... متى تعطل؟ كيف لم أنتبه له من قبل؟ فما كان أحد يدخل غرفتي إلا أنا، وكأنه ليس المكان نفسه، أكان تواجد شقيقتي يخفي عني كل ذاك؟ ربما، لكني متأكد أن تواجدها كان يجعل من مكاني ذاك جنة حين أزوره كل عيد، وها قد تحول لجحيم بعد أن غادرت، غادرت فما عدت أعرفني، حتى ذاك المصباح بغرفتي ما عدت أميز أمضيء هو أم منطفئ، دمعة أمي، وضعف أبي، وانهيار شقيقاتي... كل ذلك ضاعف ظلمتي.

كان يصعب علي أن أعود لحياتي الطبيعية، فكرت أن أقضي شهرا كاملا بمنزل العائلة إلا أن اتصال مدير المطبعة الذي أخبرني أن كتابي قد تم توزيعه وأنه يجب علي الالتحاق به لإنهاء بعض التفاصيل ولتسلم النسخ خاصتي، أجبرني على ترك العائلة مرة أخرى لكني تركتها هذه المرة بغصن مبتور.

عدت لفاس دون أحلام بعد أن دخلتها أول مرة مثقلا بالأحلام، وفاة شقيقتي أوقفت الزمن، لذلك بدت الأيام الأولى التي تلت وفاتها متشابهة ورتيبة.

وجدتني أبتعد عن كل شيء، ليس اختيارا، ابتعدت مجبرا، ابتعدت مجردا من كل شيء، كنت أقضي يومي بين سجود عبادة وكلمات مقدسة وفنجان قهوة أنهيه عند الواحدة ليلا، أعود للمنزل بعدها، أحاول أن أكتب دون جدوى، أظل لساعتين ممسكا القلم ومُبعثرا الأوراق من حولي... أفشل في أن أخط كلمة البداية، فأترك كل شيء وأرمي بنفسي في حضن الشارع عندما يصبح عاريا، قُبيل الفجر بدقائق، فارغ إلا مني، يلبسني أنا فقط أو لعلي أنا من ألبسه، أشبهه في فراغه.

ثم فجأة حضر نوفمبر، هذا الشهر الغريب، المختلف في بؤسه، حضر بقسوته، بجبروته، وبصدماته... حضر بلياليه الطويلة الباردة التي لا تريد أن تنتهي والتي تهزم ذاكرتنا وأحيانا أعيننا، حضر ليحدث بداخلنا تيها آخر وليضاعف قسوة الحنين وإن كان بشرخ أكبر وبجرح أكثر غورا، حضر برغبته في أن يبعثر ما تبقى من شظايا ذاتي، حضر برغبته في أن يكمل مهمته في تكسير ما تبقى في أو ما تركه في قبل عام، حضر محملا بأوجاع جديدة، وآلام جديدة، وتمزقات جديدة...

حضر نوفمبر بلا رحمة محدثا رجة أخرى وسط حياتي التي فقدت السيطرة عليها، ذكرني نوفمبر بهاجر التي كنت أحاول تدبير مكان لها وسط ماضيي المزدحم.

كنت أحس بقرب النهاية أكثر من أي وقت مضى، وأن الدوامة ستصبح سرابا، لكن بأية طريقة وبأية خسائر...؟ كنت أدري أن زواج هشام وهاجر هو أحد أبواب هذه النهاية، لم أكن أدري أنها قد تكون مأساوية، لم يكن لي أن أتخيل أن هشام سيغدو مجرد كومة من رماد متناثر داخل مطعمه، وما كان لي أيضا أن أتخيل أن أكرم سيقوده شغفه بهاجر ليغدو مجرما.. مجرم حب.. كان يمكن أن أكون أنا تلك الجثة، هي أنا بطريقة ما على أي حال.

كنت غير قادر على استيعاب ما حدث، وربما غير راغب في تصديقه، أخبروني أن أكرم حاول الانتحار مباشرة بعد أن قام بإضرام النيران بهشام ومطعمه، ألقى بنفسه وسط النيران إلا أن أحد المارة بقرب المكان استطاع أن يخرجه من بين لهيب النيران بسرعة قبل أن تلتهم جسده بالكامل. كان قدره سيئا، ربما، بوصول سيارة الإسعاف في التوقيت المناسب لتنقذ حياته التي كان يريد أن يضع لها حدا في لحظة هزيمة. لا أدري لماذا اختار الموت بدل السجن، ألانه ما كان يملك القدرة على النظر في عيني هاجر التي اختارت أن تهجره نحو حضن رجل آخر؟ ليس حضن رجل آخر، بل نحو حضن زوج. لماذا لم يكتف بالموت حلاً؟ لماذا اختار أن يكون هشام قتيلا أيضا؟ ربما

أحس أنه أقل فحولة منه أو أقل "رجولة؟ الحياة لا تحب التردد، الحياة أيضا لا تمنح اختيارات كثيرة، إنها مسألة أن تكون أولا تكون.

لا معنى أن تحيا من دون من تحب، ولا معنى أن يحيا من تجرأ على الاقتراب ممن تحب، لكن لماذا يا أكرم لم تقتلها هي؟

لم أفكر في قتل إيمان ولا فكرت في قتل زوجها، ربما لأني لم أحبها بنفس القدر الذي أحب به أكرم هاجر أو لعلي أحببتها لدرجة صرت معها غير قادر على أن أؤذيها ولا أن أؤذي الذين يحبونها.

لا فرصة ثانية للحب، عندما يفشل الحب يجب أن يحضر الموت. مخطئ أنت يا سفيان، لا مراحل تلي فشل الحب، وحده الموت يمنحنا القدرة على تجاوز ذاك النقص في أحاسيسنا، إننا لا نحيا إلا لنحب. أكرم ليس مجرما، أكرم عاشق فقط، هشام قتلته بساطة أحلامه، أما هاجر فهي ضحية نفسها، ضحية ترددها، ضحية رغبتها في حياة بمقياسين، أرادت أن تكون زوجة لكن بداخلها أنثى متمردة على كل شيء. هذا التناقض الذي أصبحتْ عليه كان قد بدأ يُبعدني عنها، إلا أني وبعد ستة أشهر من كل هذا، وجدتني أقابل والدها.

- أنا هنا لأتزوج ابنتك هاجر.

عدت للمنزل بعدما نلت الموافقة، لا أعلم إن كنت سعيدا، لم أفكر حتى لما أريد أن أرتبط بهاجر، خفت أن يكون للأمر علاقة بشفقة أحسستها تجاهها لأنها فقدت شقيقتها وخطيبها، وسُجن حبيبها...

كنت أحاول النوم وأن أمنع نفسي من التفكير في كل هذا، إلا أنه فجأة رن الهاتف معلنا وصول رسالة قصيرة، كانت من رقم لا أعرفه:

- " أنا إيمان، لقد انفصلت عن زوجي، أنا حرة الآن، اشتقتك"...